عبد الباقـي يوســـــف

كتاب الحــب والخطيئـــــة

مجموعة قصصية

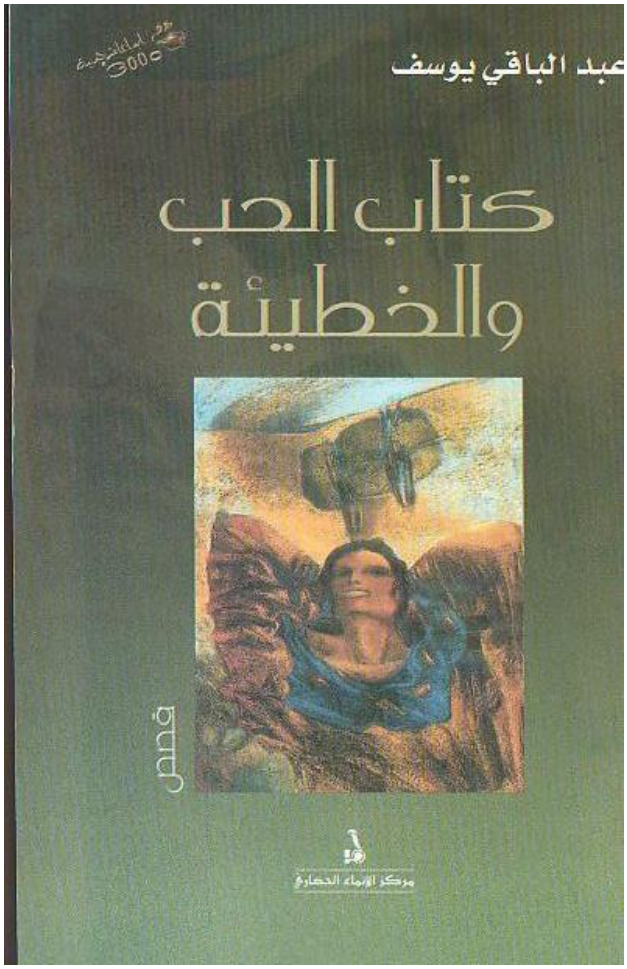

عبد الباقي يوسف
كتاب الحب
والخطيئة
قصص
مركز الإنماء الحضاري

فهـــر س

الفصـــل الأول

١ - الكنـــز
٢ - زهـرة الأنوثـة
٣ - تصحيح خطأ الحـب
٤ - ليلة الزواج الأولـى
٥ - دفء العـش الأو ل
٦ - شروق شمس الحب
٧ - طَـرَ قاتُـها
٨ - قبلـة من الروح
٩ - الحـب والكراهيـة
١٠ - قصـة حب وموت
١١ - نسمات هواء أســو د
١٢ - غيو م الخطيئـة
١٣ - محطات من حياة خورشـيدة
١٤ - رياح التغيير
١٥ - شوارع الحـي القديـم
١٦ - الأنـــف
١٧ - مفاتيـح الظـلام
١٨ - مـن سـيرة شـداد

الفصـــل الثانـــــي

١ - الجـــــو ع
٢ - مـن حكايا الرجل الذي لايكذب
٣ - بعد منتصــف الليــل
٤ - نحــل وذباب
٥ - خيوط الدخان

الكنـــز

هذه هي الليلة السابعة التي لم ترقد فيها مليكة ، لاتقوى على فعل شيء غير أن تلبث متيقظة ، تغمض عينيهامن جديد وتتحايل على حواسها بأنها غفت وودعت عالم اليقظة في محاولة أخرى للهروب من تلك الانهيارات في أعصابها، تذكرها أمواج اليقظة المشتعلة بأن رموشها مالمست النوم لحظة واحدة فتمسي مجرد غفوة صغيرة كحلم بعيد المنال ،ومرة أخرى يستبد بهاذات الشعور بأن الليالي السبع الفائتة ماكانت غير محاولات فاشلة٠ تبرك على فراشها ،تجرع جرعات جديدة من مرارة اليقظة المتواصلة، تمد يدها إلى ظرف الأقراص المنومة وتبتلع قرصا ، تدخن سيجارة ٠٠ تتجاوز الساعة الثانية من جديد ٠ياله من وقت مزعج هذا الذي لايسرها أن تكون يقظة فيه ، لم يعد يهمها إن كانت هي التي تقرر القيام بما تقوم به من أفعال ، أم أنها تنقاد غير دارية ، فنهضت ، أو نُهضت ، لافرق، إلى المطبخ ، جلست ترتشف ابريقا من البابونج ٠٠ ومن المطبخ اتجهت إلى الخارج ، تأملت

السكون والمصابيح المشتعلة في الشارع ، تأملت القطط وهي تمزق أكياس القمامة الموضوعة بجانب الأبواب ، خطت تاركة الباب مفتوحا ، سارت خطوات وخطوات ، لم ترغب في العودة رغم برودة الطقس ٠ عند وصولها إلى نهاية الشارع استدارت عائدة إلى البيت ٠٠ لافائدة ، ماتزال منطقة صناعية بكاملها تعمل في رأسها ٠ لابد من أنه النوم ، أجل إنه النوم ياماليكة هذا الذي يناديك إلى دفء الفراش ٠ تزغرد كل حاسة فيهاوتتجه إلى الفراش تغطي كامل الجسد إلى قمة رأسها باللحاف علّه يعرّق جسدها فيطول النوم ٠ يمضي الوقت فتزداد المنطقة الصناعية نشاطا وكأنها عادت بعد أسبوع عطلة ٠ تقذف باللحاف بعيدا وتقفز برعب ، وفي أثناء ذلك بدا لها أنها كانت غافية وهاهي وقائع حلم خرجت منه للتو ٠ زاد هذا الشعور من ألمها فسحبت اللحاف وعادت تتغطى به كاملة وقد تكورت تحته كأنها أرنب لاذت من الثلج بوريقات شجر ة ٠ تغمض عينيها وتبدأ تعد الأرقام ببطء شديد متخيلة أنها سوف لن تصل إلى الخمسين ، يزداد العد بطأ ، تكتشف أن العد تجاوز المئتين ٠ : مليكة ، يكفي هذا التوتر ، كوني مسيطرة على نفسك ٠ كل ماحدث لم يكن برغبتك ٠

- لكنني وافقت عليه
- كنت صغيرة ياماليكة ، تظنين أن رغبتك مقترنة برغبة أبيك ٠

تتقلب في الفراش من ظهرها إلى الجهة اليسرى متمتمة والدموع في عينيها : كيف للإنسان أن يبقى يدفع ثمن خطيئة واحدة مدى العمر ٠

تنهض وكأنها في عز ظهيرة ، تدخل غرفة نوم الأولاد ..
كل هؤلاء خرجوا منك ياماليكة . وترمق رجلا في الثلاثين جاء ينعم بدفء الليل مع رائحة أطفاله : لقد بذر كل واحد من هؤلاء بزرة بزرة .. ثمانية أطفال ياماليكة وأنت ماتزالين طفلة . إنه مستغرق في النوم وقد نسي ، ولكن هل بمقدرورك النسيان وهم يهرعون إلى حضنك كلما جاعوا وبردوا .

في الآونة الأخيرة كان يدينك بنظراته على مائدة العشاء : ستجعلينني جدا وأنا ما أزال في الثلاثين . وكانت نظراتك هي التي تقول لنظراته : بل أنت الذي ستجعلني جدة وأنا في السابعة والعشرين .

ردت نظراته المحدقة : ماعدت تصلحين غير أم للأولاد .. أحتاج إلى امرأة زوجة .

تطايرت الادانة من عينيك : جاء الأب ، خرج الأب ، نام الأب ، فاق الأب . لاتصدق أيها الأب أن هناك أنثى تهنأ في بيت رجل إلا إذا كانت أنيسته الأولى ، وأنه لها أكثر من أي كائن آخر . ها أنت لم تعد إلا لهؤلاء الذين أخذوك مني وأخذوني منك . مات الزوج فيك ، ماتت الزوجة فيّ .

هاهو العمر يتفتح للحياة ياماليكة ، زهرة الأنوثة تتفتح فيأتي الانطفاء . نسيت الثياب الجديدة .. العطور .. بعت حتى خاتم الزفاف والقيراط كي ترضعي هؤلاء الذين أتيت بهم ليغتالوا سنوات مراهقتك ولادة إثر ولادة . هل ستشعرين أن عمرك انتهى وأنك لن تمارسي طقوس ووقائع وحميمية العلاقة الزوجية مرة أخرى ، هل انتهى العمر في بدئه .

انسحبت من حجرة النوم بذات الهدوء الذي ولجت فيه ، وعندما ألقت نظرة إلى الساعة رأتها تشير إلى الثالثة والثلث ، رأت نفسها تدخل غرفة صالون الاستقبال وتبرك جوار الهاتف ٠ رنّ حديثه في أذنها : لاتتصوري أن الأمر سوف يكون بالسهولة التي تتصورينها ، إنك أم لثمانية أولاد ٠
رنّ كلامها : ألن تفكر أن تخرجني من سجن نفسي ولو بكلمة ، أن تمد إلى ضياعي كلمة أمل ٠
رنّ هتافه : أنت منفعلة الآن ، أنصحك بترك البيت لأسبوع ، وقضاء وقت في إحدى القرى التي لك فيها أهل ، سيكون كل شيء على مايرام ٠
رنّ صداها : لا - - لا - - لست منفعلة ، عندما نلتقي أشرح لك ظروفي ستكتشف كم أنك متسرع في نظرتك ٠
للحظة خاطفة اجتاحتها رغبة في التدخين ، عادت إلى غرفة نومها المضاءة ، سحبت سيجارة من العلبة وعادت إلى ركنها تتأمل جهاز الهاتف ٠ أشعلت سيجارة بطرقة خفيفة أولى من قداحة جديدة اشترتها صباح أمس من بائع متجول نادى ببضاعته أمام بيتها ٠ نفثت دخانا كثيفا في ركود الأجواء وتداعت في مخيلتها صور لم تكن راغبة في استرجاعها ، بيد أن الصور بدت مقتحمة عليها فضاء الذاكرة ، فغدت تسترجع كيف أن أباها كان على علاقة بأمها قبل الزواج وأن هذه العلاقة أرغمت عليهما الزواج ، وهاهو شريك الحياة يفقد كل دفقة من رجولة وحميمية الزوج ويترك يده من يدها في منتصف الطريق ، تتذكر رنين الهاتف المتواصل الذي لايرد إلا إذا رفع زوجها الهاتف ،

تتذكر أن زواجها المبكر ما كان إلا لخوف الأب أن تطلع البنت لأمها فلا يكون الرفيق شهما مثله ٠
لأول مرة اجتاحها احساس غامض بغربة عميقة إلى أنها بدت تشك بمعرفة المكان الذي تبرك فيه ، وبمعرفة الجهات ، ومعرفة الأبواب والنوافذ ٠ أطفأت عقب السيجارة وحدقت في جهاز الهاتف ، ران كلامه : صورتك كأم لثمانية أطفال الآن هي الأجمل من أي صورة أخرى كنت أو يمكن أن تكوني فيها ٠
دوما - - دوما - - لاتدعني أستفيض في شرح ما أقول لتعرف موقفي ٠٠أشعر بملئ العالم وفراغ روحي ، قمت بأشياء ماكان علي القيام بها ٠٠ لكن هل يخسر الإنسان كل شيء في لحظة طيش واحدة ٠٠ هل انطفأت مصابيح العالم إلى الأبد بالنسبة لامرأة عاشت غبية في مرحلة من عمرها ، يكفي أنني أطلقت ثمانية أولاد ، أرضعتهم من حليبي ٠ ماذا يحدث فيما لو تركت كل شيء هنا ورحلت إلى بلاد أخرى ، تعلمت لغات أخرى ، شاهدت مدنا أخرى ، ماذا يحدث لو تخلصت من هذا الإعياء المرعب الذي يفتت صفاء النهار ٠ أنا واثقة بأنني أرى أشباحا تحوم حولي وأفقد أي قدرة على التركيز ، وأي قدرة على تمييز الناس والألوان يوما بيوم ٠ يستوطنني إنهاك مميت ، لم أعد قادرة على الخروج ، حتى النسيم يتآمر علي ، يضرب بسوطه وجهي ٠ أرى أشباحا تتراقص أمامي ، وأسمع أصواتا مشوشة في أذني ٠ بي مس من شيطان ، مس من شبح ، مس من جن و لقد نضجت تمام النضج لأكون فريسة للوساوس والهواجس والمس ، لكن لماذا تصر ألا أقترب منك ،

وتصر أن تتفرج على مأساتي من بعيد ، كان علي أن أحرص على كل لحظة من لحظات عمري ، أنا محتقنة بالإستياء ، لن ينتهي العالم إذا التقينا وقمنا بمغامرة نبتغيها علها تطفئ شيئا من لهيب نيراني وتخفف قليلا مما بي من مس ٠
ران كلامه : بالنسبة لي هذا يعني الكثير ، لست مستعدا لمغامرة كهذه ، مغامرة لاأبتغيها ٠ الإنسان نفسه هو الذي يروي أشجار الشر في تربة روحه ٠
تحركت بتوتر متصاعد : يبدو أنه الشر ذاته الذي يبحث عن مخلوق واهن يستبد به ٠٠ هاهو يسكنني ٠
عاد كلامه إلى ذاكرتها : على الإنسان أن يكون في انتظار دائم لتوقع المصائب الكبرى التي تقع على روحه ، عليه أن يروّض نفسه دوما لتحملها ومواجهتها بذات اللحظة ٠
نظرت إلى السقف : لكنني فقدت كل شيء ٠
عاد كلامه بقوة : إنه الصراع ذاته الذي عليه أن يبقى مشتعلا في معركة الإنسان مع نفسه من أجل الانتصار ٠
ابتسمت كبسمة بين المقابر ودندنت : لكن الحب سيأتي مرة أخرى ، لابد من أنه الحب الذي لايموت في ضمير الإنسان ، إنه الحب الذي يحمل معه أجنحة الخلاص ٠
رفعت السماعة وصارت تدق على أرقام مثلما تدق على آلة كاتبة ٠
الرنين الأول ٠٠ تذكرت كلامه : أفضل ما تفعلينه ألا تتصلي بي ، أن تنسي اسمي من ذاكرتك ٠
تذكرت كلامها : وهل سأقدر ؟!٠

الرنين الثاني ٠ ٠ تذكرت كلامه : ليس لدي ما يقدم شيئا مجديا لك ٠
الرنين الثالث ٠٠ كانت أصابع الساعة تشير إلى الرابعة ٠
الرنين الرابع ٠٠ تناهت نبرات خافتة ، لم ترد ، ارتفعت النبرات ، اندفع صوتها : آسفة لأنني أيقظتك ، أنت الوحيد الذي لي في هذا العالم ٠
جاء صواته : أماتزالين متيقظة ٠٠ شكرا لإيقاظك لي ٠اندفع صوتها : هل ستغلق السماعة وتتركني أهلوس مع شبحك ٠
ترامى صوته : ستُسمعينني شيئا لايهمني ٠
- عندما تسمع شيئا لايهمك ، سأشرق كوردة ميتة ، سترى ذلك بأذنيك ٠
- لكن ، لاشيء يغري بالسقوط ٠
انفجر صوتها كشجار : إذا كنت تسميه سقوطا ، فلأجل أي شيء لا أسقط٠
وقعت السماعة إثر ذلك من كفه ، لم يشعربرغبة كافية في إعادتها فخرج على الفور يعد فنجان قهوة ويستمع لأغنية صباحية ٠ برك بجانب النافذة يتأمل منظر طلوع نهار جديد وامتزاج الأغاني بزقزقة العصافير الطالعة للتو من أعشاشها ، وكما تقع صاعقة صغيرة انتفض إثر سماع جرس الباب ، رغب في أن يكون ذلك وهما ، ولكن الجرس واصل رنينه ٠٠ : هل يمكن أن تكون غامرت بالمجيء ٠ انتظر علّ الصوت يكون وهما ، ولكن الجرس ذاته عاد يصدح في الحواس المرتبكة بعد هنيهات سريعة ٠ دنا من الباب ٠٠ امتدت أنامله الراعشة إلى الممسك ، وبكل ما

أوتيت من تردد سحبت الباب ، فرآها تقف كشبح قبالته ، تذكر سقوط السماعة للتو ، تراجع بخطا وئيدة إلى الخلف وأخذت تتقدم إليه بخطوات هزيلة وكأنها خطوات أخيرة لشخص على وشك الموت ٠ لكمت قدمه بسماعة الهاتف ، فأعادها إلى موضعها وبغتة انفجر صوته كبركان : لكن لماذا لاتسعين لإعادة حميمية العلاقة بينكما ؟ ٠ لم ترد عليه ، أعاد ماقال عشر مرات متلاحقة ، لكنها لبثت تنظر إليه وكأنها لاتسمع كلمة واحدة ٠ برك على الكنبة ، بآلية وقع وجهه في راحتي كفيه ، رغب في الخروج من الواقع بأي طريقة وأغمض عينيه متجاهلا وجودها ، مضت ساعة عليه ، عندئذ وكمن يخرج من حفرة رفع رأسه من مقبرة كفيه ، فوجئ بعدم وجودها ٠

بعد شهرين أحست المرأة بأنها كانت في بئر وخرجت للتو إلى الحياة ، دب النشاط في أوصالها من جديد وغدت تحتضن أولادها وتولي زوجها اهتماماً خاصاً ا في محاولة لتعويض برودتها نحوهم خلال ستة شهور فائتة ٠ في المساء هتفت له وعندما رفع سماعة الهاتف ، لم تدعه يتحدث ، قالت : شكرا على موقفك البطولي نحوي ، الآن أشعر بأنني بطلة ، إنني مدينة لك بكل ما أنا فيه من نقاء ٠ أعاهدك بأنني سوف أحافظ على هذا الكنز ٠

زهــرة الأ نوثـــــة

قامـة أنثويـة تبـدو ملكـة صـغيرة عـادت مـن إجـازة إلـى مملكتهـا للتو، تشير لحارسها الأمين أن يؤوب بعد أن أوصلها وفتح لها الباب بالمفتاح الذهبي. تمد خطوات وئيدة وهـي تحمل عشرين زهرة ربيعية من عشرين ربيعاً. تستنشق هواء مملكتها، تدرك بأنـه الـركن الأكثـر صـفاءً فـي العـالم، تتسـرب إليهـا موسـيقى زمفيرية لا تكون مدهشة إلا في هذا المكـان تضـفي عليـه مسـحة من حزن رقيق، تنظر إلى أوراق شجرة الخوخ التي بدت تنتظر عودتهـا وهـي تسـتمع للحـن الانتظـار المنتشـر فـي كـل أركـان المملكـة الغارقـة فـي الصـمت والانتظـار. خطـوات قامتهـا الممشوقة تمتد بخيلاء ناحيـة الحديقـة الصـغيرة، ترمـق فنجـان قهوة إلـى جانـب ركـوة وكـأس مـاء وعلبـة دخـان علـى طاولـة، عصافير تتسلى،أو تضيّع وقتها على غصون شجيرات صغيرة، نحلات تحط على زهرات موسمية ترفرف بأجنحتها بأنس ٠ قالت التربة لقدميها: إنني عطشى.

تأكدت من نداء الاستغاثة بمد يدها إلى اليباس ودنت من النافورة، أدارت المفتاح فبدأ رذاذخفيف يتناثر على عطش الخضرة. سرت خفقة إنعاش في أوصالها أمام منظر الرذاذ وهي تميل إلى الباب نصف المفتوح الذي تنبعث منه الموسيقى العذبة. كان يتغطى بشرشف خفيف في إغفاءة الصباح على كنبة في مكتبه بعد أن نهض من نوم عميق واحتسى قهوة الصباح مع سيجارة كعادته. نادتها ابتسامة الموناليزا المعلقة، تذكرت حديثها الطويل حول دهشة البسمة، وعبقرية دافنشي الذي تمكن من رسمها بهذه التقنية العالية، تذكرت كيف أنها مرة حاولت تقليد هذه البسمة بكل إمكانات المرأة وهو يلتقط لها صورة ويقول: لكنك الأكثر جاذبية.
من الكنبة المقابلة ناداها كتاب، خفق قلبها بنشوة مَنْ رأى تحفة ثمينة بعد فقدانها، رواية" إيفالونا" التي جلبتها معها يوم الزفاف.
لا تدري كيف مالت على غلاف الرواية وقبلت اسم "ايفالونا".كم قالت له أن يقرأ هذه الرواية ولو مرة واحدة ولكن زيارات المهنئين والمباركين كانت دوماً تؤجل ذلك. كانت تقول له: فهمت من مقدار الحرية التي كتبت بها إيزابيل الليندي روايتها أن المرأة لا تكون عظيمة إلا بمقدار الحرية التي تُمنح لها، ولا تكون سفيهة إلا بقدر القمع الذي يمارَس عليها.
انتبهت إلى خفوت الموسيقى المنبعثة من المسجلة إلى أن انضمت إلى صمت الأشياء.

جوار المسجلة لمحت قلماً ملقى على ورقة، اندفعت برغبة الاستطلاع، أزاحت القلم عن جملة وحيدة كُتبت بخط بطيء جيد :

" لا يوجد حب سعيد
سواء كان حبك
أو حب الوطن "

حملت القلم وخطت على ذات الصفحة :

" أنا حبك وأنت حبي
إليك انتهت نفسي "

ألقت نظرة من خلف طاولة الكتابة إلى عينيه المغلقتين، ثم راحت ترتب الفوضى العارمة في مملكتها، لمت قطع ثياب متناثرة، أعادت كل كتاب إلى ركنه في المكتبة، كل شريط إلى علبته، مسحت الغبار عن شاشة التلفاز، أفرغت منافض السجائر والتقطت أعقاباً من الأرض، أخرجت كاسات الشاي وفناجين القهوة. دخلت المطبخ الغارق في حالة فوضى ، اندفعت تجلي الأواني المتسخة ، تعيد كل غرض إلى مكانه ، أدارت مروحة الشفاط لتُخرج الروائح . عادت إليه تحمل فنجانَي قهوة وكأس ماء وعلبة دخان ومنفضة، بحثت بين الأشرطة ودفعت واحداً إلى باب المسجلة، تناهى صوت فيروز

الصباحي الخافت. نادته بهمس وهي تدنو من وجهه النائم : قم يا روحي ، هاقد عادت مِلكتك إلى مملكتها . تسربت أناملها إلى خده بنعومة أنثوية، انفتحت عيناه ، رآها فراشة تحط جواره، تمطى برغبة جامحة في احتضانها، لم يملك كبح جماح شوقه العارم إليها فمد كفه إلى كفها الناعمة، استجابت الأنامل لنداء الأنامل بحرارة. أنامله المعرّقة الخارجة من تحت شرشف، وأناملها الباردة الخارجة للتو من برودة آذار. رفع رأسه من الوسادة المكسوة بحرير أبيض، تأمل حدقتيها بشوق: شكراً على هذه المفاجأة ياروحي .
لم تدعه ينهض من استلقائه، فجلس نصف جلسة سانداً كتفيه إلى ممسك الكنبة من الخلف وتناول من يدها فنجان القهوة، ولما أحست رغبته في سيجارة، مدت يدها إلى العلبة وأشعلت واحدة، ثم قدمتها لأنامله. فبدأ يشعر بمتعة خاصة في احتساء القهوة لأنها هي التي صنعتها، وبنكهة محببة في التدخين لأنها هي التي أشعلت السيجارة وقد خرجت للتو من فمها، حتى فيروز بدأت تصرخ بفيروزية أكثر عذوبة لأنها هي التي انتقت الأغاني . وفي هذه الطقوس الشاعرية التي ملأت المكان خرجت عبارات بنبرة رقيقة فياضة من خفقات قلبه : كنت أراك تبكين وتضحكين، تنامين وتستيقظين في / الجانب الآخر من الانتظار، في الجانب الآخر من ذاتي / عشرة أيام مضت في سجني الاختياري حتى الشجرة كانت كئيبة فيها. كان مجرد تصور أن أعود ولا أراك في استقبالي مبعث فزع ، آثرت المكوث في البيت مع ذكرياتك ، كنت أقرأ كتاباً قرأناه معاً، أتأمل سطورك تحت الجمل الملفتة التي كانت تدل على إمكانات

اللغـة فـي التعبيـر، أحيانـاً كنـت أضـعك علـى الكرسـي بثيابـك ونسـهر كعادتنـا حتـى الصـباح، كنـت أقـرأ لـك آراغـون وبـول إيلوار في أمسيات تفضلين فيها النوم مبكراً.
كانت الدموع تنهمر من عينيها وهي تصغي إليه: أريد أن تبقى دائماً في شاعريتك هذه.
عـرف مـا قصـدته مـن الـذي بَلبَـل علاقتهـا الزوجيـة منـذ الليلـة الأولى
فقال: ومن قال أن الأنوثة ميتة الشاعرية؟
قالت: لكننـي أخـاف شراسـة الرجـل أن تقتل كل حالـة شـاعرية فيك.
قال: شعرية الأنوثة تقي من ذلك
قالـت: لكنـي أخـاف ألا تعتـاد رجولتك إلا علـى أنـوثتي، وعنـدها سنفتقد حبنا الغالي .
قال: منذ أربعـة شـهور لا أنـا رجـل، ولا أنـت امـرأة ، وأظـن أن كل مَنْ حولنا يتهامسون، يتغامزون، يتساءلون؟!
قالت: لكننا حافظنا على شاعرية حبنا.
قال: لكنه لن يكون حباً مكتملاً، سيموت بدون أن تكـوني امـرأة، بدون أن أكون رجلاً.
امرأة بلا أنوثة هي :
وردة لا رحيق فيها
شجرة لا أوراق لها
حديقة لا مروج فيها ٠
وردة لا رحيق فيها هي وردة يتيمة
شجرة لا أوراق لها هي شجرة يتيمة

حديقة لا مروج فيها هي حديقة يتيمة .

بانتهاء هذه الكلمات، امتدت يده إلى علبة الدخان ساحبة سيجارة جديدة، فنهضت واقفة على قدميها مشيرة إليه ألا يشعلها قبل أن تعود .
بخروجها انتقى شريطاً موسيقياً نوّله لباب المسجلة، فأخذت مقطوعة "لونلي شبرد" تملأ الأجواء بعذوبة، عادت على إثرها وهي تحمل إبريق شاي بالنعناع ، صبّت كأسين، ومرة أخرى أشعلت سيجارة ووضعتها بين شفتيه وهي تقول: إنك تعرف كيف تنتقي المقاطع الموسيقية في أوقاتها، كنت في شوق لهذه الأنغام الرائعة، عشرة أيام قضيتها في بيت أهلي كنت فيها يتيمتك، شعوري باليتم هو الذي دفعني إليك، علمت فيها أن يتم الزوج بالنسبة للمرأة لهو أقسى وقعاً من يتم الأبوين ، لكني لم أحتمل مشاعر اليتم أكثر من ذلك، كنت أحس بأنني تركت أمناً هنا، وهنا اكتشفت بأن هذا الأمن هو أنت فعدت إلى أمني في مملكة حواسك،
تركت أهلي مرة أخرى وجئت راكضة. في جو من السرية التامة أهمس لك ياروحي أن المرأة لا تسكن بيت زوجها قدر أنها تسكن حواسه، وحتى لو لم يكن لديه بيت فإنها تسكنه على أي رصيف وعلى أي قارعة طريق ٠ليس هناك بيت في العالم أسكن للمرأة من بيت أبوَيها ، لكنها تتركه بمودة لتسكن حواس زوجها أينما كان ٠
لأول مرة منذ زواجهما طبعت قبلة على خده بأنوثة ، ومدت يدها تفسح مكانا بجانبه على الكنبة ٠

عندها أشار إليها أن يذهبا إلى السرير الزوجي الذي عانى هو الآخر اليتم منذ تصنيعه وإحضاره إلى غرفة الزوجية هذه ، فأصرت التمدد إلى جانبه في ذاك الموضع الضيق الذي كاد أن لا يتسع لهما ٠

في تلك اللحظات سرت رعشة أنثوية في جسدها وروحها لأول مرة ، استيقظت أنوثة متفجرة بعد رقاد عميق ٠أحست بأنسام حياتية جديدة تتدفق في عروقها، وفي ذروة احتفاء الروح والجسد بلحظات الإشراق الجديدة أدركت أنها بلا أنوثة تكون كحصاة على رصيف ، فغدت وهي تحتضنه بكل أنوثتها اللذيذة ، تلتصق بتفاصيل الأنوثة وتنتعش برعشاتها التي فاقت شاعرية كل كلمات العالم ، فغدت تشرق زهرة جسدها بإشراقة الأنوثة في عالم حافل من لحظات مجد ا لروح ٠

تصحيـــح خطـأ الحـــــب

تناهت نبرات خافتة إلى مسمعه، تحركت كدودة على غشاء الطبل فأيقظت كامل الجسد الذي كان غائراً في نوم عميق منذ ثلاث ساعات غير متقطعة. في لحظات بدا له الاستيقاظ كحصان واهن يستجر جبلاً، وبدا النوم أثقل من أن يقاومه، ثم على هذا الوتر الذي بدا كلحن استسلم مرة أخرى – دون أن يدري – لنومه وهو يتخيل أن النبرات كانت جزءاً مزعجاً من حلم .

بعد جزء آخر من استغراقه عادت الدودة ذاتها تقوم بفعلها السابق على غشاء الطبل، انتفض هذه المرة باركاً على تخته الخشبي المتهرئ ، امتدت سبابته لزر صغير فاكتظت الغرفة المظلمة نوراً . رفع عينيه إلى الساعة ، تمضي نحو الثالثة والنصف ليلاً ، وتذكر من جديد بأن صوتاً ما أيقظه. ألقى نظرة إلى الشارع من خلال النافذة المشرعة في طابقه الثاني علّه يرى مصدراً للصوت الذي أزعجه في هذا الوقت فلم يقع على شيء وللتو تذكر وجود أخته في الغرفة الملاصقة، وأدرك أنه صوتها فهي معتادة أن تتحدث في النوم . امتدت سبابته ثانية

إلى الزر فخيّم ظلام فاتح على أجواء الغرفة وضوء خافت يتسرب من السماء عبر النافذة مع نسيمات ربيعية باردة. سحب البطانية إلى كامل جسده وهو يتمتم : يا لها من بلهاء .. تتحدث وهي نائمة.
عند زيارته للقرية الشهر الفائت، أصرت أخته نوال أن تصحبه لتتقدم إلى امتحانات شهادة الثانوية الحرة . قالت بأنها ستخصص الشهرين القادمين للدراسة في بيته حتى لا يشغلها أحد إلى أن يحين وقت الامتحان .
أربع سنوات من الملل مضت منذ حصولها على شهادة الإعدادية، واضطرت للتوقف مكرهة بسبب عدم وجود ثانوية في قريتها النائية، وعدم موافقة أبيها – الذي رحل منذ سنتين – لتدرس في المدينة فآثرت رضا الأب على الدراسة دون أن تناقش في الأمر حتى بينها وبين نفسها ، لكن الآن عادت الفكرة تلح على مخيلتها بقوة : لِمَ لا أكمل تعليمي، لن أكون ضائعة في المدينة، إنه بيت أخي الذي طالما رغبت الإقامة فيه بعد موت زوجته. أعلم أنه يعاني من الأعمال المتراكمة عليه في البيت، بيد أنه لا يُظهر هذه المعاناة. لا لن يتضايق حمدي من استضافتي عندما يصبح الأمر واقعاً. هناك سأتعرف بصديقات جديدات في المدرسة وفي الجوار، وسأخفف عن أخي أعمال البيت، ياه كم أتمنى فيما لو تعرفت بفتاة جيدة تصلح أن تكون زوجة له .
ولا تدري كيف رأت المرونة من أمها وأخيها عبد القهار الذي أخذ موقع ونفوذ الأب في البيت والوصاية، وهو ذاته ذهب معها

إلى المدينة وابتاع الكتب قائلاً لها : حتى يقول الناس ابنة قرية، لكن تحمل شهادة .
للمرة الثالثة عاد الصوت المزعج ذاته يطن في أذنيه فانتفض مرة أخرى من نومه العميق والصوت يتعالى ويتداخل بهمس آخر .ترك الفراش وخطا حافياً نحو باب غرفتها كي لا يوقظها إذا كانت نائمة رغم الشك الذي تسرب إليه عند سماع الهمس المتداخل. وأمام الباب المغلق تناهى ذات الهمس بخفوت إلى أذنيه: لا تخافي، إنه نائم .
عقب همسها : قلت بأنك تريد أن تراني، يكفي أنا خائفة من استيقاظه.

- : لم أرك بعد، سأنظر إليك قليلاً و أخرج .
- : أنت تسبب لي مشكلة ببقائك، لم أكن لأدخلك لولا أن قلت في الهاتف بأنك ستطلبني للزواج .
- : سأخرج الآن، لكن أريد قبلة ما قبل الزواج حتى تبقى ذكرى معي .
- : لا .. لا .. يكفي ما أنا فيه من إثم، إن الله يرانا.
- : لكننا سنتزوج .
- : عند ذاك سأعطيك قبلة وشيئا آخر .

مدّ حمدي كفه إلى قبضة الباب وأدارها بأقصى سرعة فتسمرا كشخصين محنّطين، سدد إليهما نظرة محتقنة واستدار عائداً إلى غرفته وقد ترك الباب مشرعاً.
أشعل سيجارة وتاقت نفسه لفنجان قهوة يحتسيها أمام النافذة علّه ينسى ما رأى ، تناول نصف كأس ماء وهو يقاوم رغبة في القهوة كي يمنع نفسه من الخروج مرة أخرى من الغرفة، فلبث

يدخن ويحاول أن يصغي للمذياع ويهدئ من روعه ، وبنظرة مباغتة إلى الساعة كانت تشير إلى السابعة والنصف. خرج إلى الصالون لم يسمع صوتها الصباحي الهادئ ككل صباح خلال الأيام العشرة الماضية : صباح الخير يا حمدي يا أطيب أخ في العالم . وبيدها كأس الماء. راح صوب المغسلة، رمى بعض ماء بارد على وجهه بعجلة، ثم عاد إلى الصالون يمارس حركات رياضية سويدية، وفوجئ بالفطور على الطاولة دون أن تكون جالسة بانتظاره وتصب له كأس الشاي ، أو تقشر بيضة وتضعها أمامه ، لكن ذلك أزاح من خاطره أفكاراً سيئة راودته في أثناء الغسل فاطمأن على أخته الصغيرة من هول ما وقع . تناول حبات زيتون مع قليل من زعتر وشاي، ومرة أخرى تعمد التباطؤ في ارتداء ثيابه علّها تخرج، عندها رفع صوت المذياع إلى آخره وخرج متأخراً عن عمله ربع ساعة، مما أدى إلى تأخره عن باص الدائرة الذي يأخذه إلى الباب. على الرصيف لمح ذات الشاب يستدير ويجري بخطوات راكضة، تذكر بأنه شاب خجول كلما رآه أقبل إليه مسلِّماً، وهو يسكن في الطابق الأرضي من هذا البناء، يعمل في دكان والده في صناعة الأبواب والشبابيك ، ذاك الأب الطيب المبتسم دائماً الذي يستجيب لأي طلب قائلاً بشيء من المزاح : أنت فوقنا وطلباتك أوامر أستاذ حمدي ٠
فيجيب : أشكرك يا أباجوان ٠
في الثانية بعد الظهر عاد إلى البيت منهكاً من العمل، خلع ثيابه واغتسل، ثم تمدد قليلاً كعادته قبل أن يتغدى، وبعد قليل اتجه إلى مائدة الغذاء التي أحضرتها ، لكنه لم يرها ترفع الأغطية

عن الصحون كالعادة وتسكب له. قعد يتناول طعامه بامتعاض ونظراته معلقة بمدخل غرفتها علّ الباب ينفتح أو يصدر صوتاً، لكنه بخل بذلك، فنهض إلى غرفته،استلقى على التخت الخشبي العتيق وراح في غفوة إلى المساء، عندها تمطى ونهض إلى المطبخ يصنع فنجان قهوة، عملها بيده وجلس على البراندا يدخن ويحتسي القهوة، ينظر إلى الناس في الشارع وهو يشعر بفراغ إلى جواره إذ كانت تبرك بجانبه يتحدثان ساعة كاملة ثم يجددان القهوة إلى أن يحين موعد الجلوس للتلفاز وحفلة الشاي والكاتو والمكسرات، ثم ينتهي البرنامج بعشاء خفيف من خيار وبندورة وحمص، أو بطاطا مسلوقة ولبن. جلس نحو ساعة مملة ثم عاد واستلقى على الكنبة . بعد قليل أشعل التلفاز، لبث ساهراً كيتيم حتى الواحدة ليلاً لكنها لم تخرج،عندئذ أغلق التلفاز وقبل أن يتجه إلى غرفته خطا نحو غرفتها، مد يده بحركة بطيئة غير مسموعة إلى قبضة الباب فلمس بأنه مقفول من الداخل .

في الصباح وهو يتوجه إلى مائدة الفطور لمح ورقة كتبت عليها حاجات البيت من طعام، حملها في جيبه وخرج . عشرة أيام مضت ولم تلتق نظراتهما رغم وجودهما في بيت واحد، ولم يسمع لها نبرة صوت حتى إذا اضطر إلى محادثتها ترك لها ورقة، فتجيب علن هذه الورقة.

في أمسية يوم الحادي عشر نهض في السابعة مساءً، وكعادته صنع فنجان قهوة وأخذ علبة دخانه إلى البراندا، وقبل أن يفرغ من السيجارة الأولى وفنجان القهوة رُن جرس الباب، تعمد أن يتباطأ في الاستجابة متأملاً أن تخرج فيراها وينتهي الإضراب،

لكن الرنين تكرر وكأنها لا تسمع شيئاً، فاضطر إلى النهوض مكرهاً ونظراته مصوبة إلى باب حجرتها المحكم .
كأنه كان في نوم عميق فاستيقظ على رشة ماء مثلّج، أنسته الرشة البادية عليه أن يسارع كما تجري العادة في هذا الحي الاجتماعي : أهلاً وسهلاً .. تفضلوا .
لكن صوت جاره الواثق خفف عليه من وقع المفاجأة :
أم جوان أصرّت أن تشرب مع جارتها الجديدة فنجان قهوة .
انتبه حمدي للتو إلى قصوره وتأخره في دعوتهم للدخول، وبشيء من الإيحاء المربك بأنه أراد أن يطيل في الترحيب احتفاءً بالمفاجأة السارة، سرت على لسانه كلمات تحمل بعض ثقة : لا أعرف كيف أعبّر عن سعادتي بهذه الزيارة، أهلاً .. أهلاً وسهلاً .. تفضلوا .
دخل جاره محمد سليم- صانع الأبواب والشبابيك - قائلاً : بسم الله ، ثم أعقبته زوجته بصوتها : ما شاء الله، وامتدت خطوات جوان تلحقهما بصمت وقد غرق في خجل بدا ظاهراً على سحنته. إنها المرة الأولى التي يرى فيها جواناً يرتدي بدلة وربطة عنق، وينتعل حذاءً يلمع. كان كلما صادفه في مدخل البناء لفت نظره بثيابه المتسخة الرثة ونعله الممزقة المتسخة التي ينتعلها كشحاطة ، يقول بأدب جم : مرحبا عمو .
فيجيب هازاً رأسه مبتسماً : أهلاً معلم جوان .. كيف الشغل .. وهو يكمل صاعداً الدرج دون أن ينتظر الإجابة .
دخلوا جميعاً صالون الاستقبال، قعدت أم جوان مع ابنها على كنبة، وقعد محمد سليم على كنبة مقابلة . بعد لحظات من وقوفه انتبه حمدي بأنه مازال واقفاً وعليه أن يبرك، فأعاد

عبارات الترحيب وهو يبرك جوار محمد سليم ويسأله عن أحوال المعيشة، لكنه لم يستطع التغلب على حالة الإرباك التي ركبته. ففي موقف كهذا لا بد لها أن تخرج وتستقبل هؤلاء الضيوف الذين أتوا بصفة عائلية، فامتدت يده - وهو مازال شارداً- ملأت كأس ماء فارغة جوار الإبريق، ثم فطن لعلبة الدخان، أخرجها من جيبه وهو ما يزال في شرود، مد سيجارة لجاره الذي تناولها شاكراً: هل يقول لهم بأنها عادت إلى القرية .. هل يدّعي بأنها عليلة ولا تستطيع النهوض من الفراش . ولا يدري لماذا تذكر في هذه اللحظات جلوسه مع أبيه و أمه في بيت زوجته المتوفية، راحت المشاهد تتداعى في مخيلته كأنها حية، هاهم أخوتها جميعاً يستقبلونه ويرحبون به وبأبويه، بعد قليل تخرج من إحدى الغرف، تقدم للضيوف قهوة، ثم تبرك حد أمها خجلة لا تنبس ببنت شفة. بدأ الوقت يمضي وعليه أن يقدم شيئاً حتى لو اعتذر عن قدوم أخته، وبدا متردداً أمام فكرة النهوض وتقديم قهوة بنفسه، وكذلك تردد أمام فكرة أن ينهض ويطرق عليها الباب، لأنه لم يشأ أن يفسد عليها وضعها النفسي .

بعد مرور ساعة من الإرباك والقلق والانتظار انفتح شق باب غرفتها ببطء شديد، فتقافزت فرحة إلى وجوه الجميع أحسستهم بشيء من الطمأنينة، وعلت بسمة مشتركة على وجوههم خرجت على إثرها كعروس ليلة زفافها. نهض الجميع ترحيباً بها. لم تكن خجلة كما توقع حمدي ، لم تُشعرهم بالوضع الذي كانت عليه طوال الأيام العشر الفائتة، وبدا حمدي ينظر إليها دهشاً وكأنها خرجت بالسلامة للتو من عملية جراحية عصية

وهو يشم رائحة عطر منعش لم يشمه قط بهذا الطيب في بيته. مدت يدها تسلم عليهم واحداً واحداً بتلقائية محببة، ثم استأذنتهم متجهة نحو المطبخ تاركة فيهم طيب ريحها ورقّة حضورها. بعد لحظات قليلة أطلّت ثانية حاملة إليهم قهوة كأنها تتبخر عطراً، فوجدتهم يضحكون ويتبادلون الأحاديث الحميمة، وحمدي يصر أن يشعل سيجارة ضيفه بيده، وهو بدوره يصر أن يشعل لحمدي سيجارته. قدمت لكل واحد فنجاناً وبركت جوار أخيها. وبثقة وازت ما كان به من حيرة قال محمد سليم : نحن لا نكتفي بالقهوة، جئنا نأخذ منك صانعة القهوة حتى تبقى تصنعها لنا طيبة كهذه .
فقال حمدي مازحاً : هاهي مثل ابنتك، امسك بيدها وخذها معك .
فابتسمت نوال، ثم رفعت كفها إلى فمها بخجل، وابتسم جوان أيضاً وهو ينظر إليها. أعقبت الأم : جوان معلم في حرفة الأبواب والشبابيك الخشبية، ويكسب بالحلال من حرفته أكثر من مدير دائرة، نتشرف يا حمدي أن نناسبكم .
وتعلقت به الأنظار كلها منتظرة ما سيصدر من فمه.

ليلة الزواج الأولـــى

وصلا غرفتهما في الفندق الحادية عشر والنصف ليلاً بعد ثمان وأربعين ساعة متواصلة من عمل شاق لاستعدادات حفلة الزفاف والسفر إلى هذه المدينة الساحلية الخلابّة لقضاء أسبوع الزواج الأول بعيداً عن تبريكات الأقرباء وزحمة المهنئين .
قال وقد برك على طرف السرير الذي أعد خصيصاً لعروسين :

كيف حدث ذلك يا نادية، أكاد لا أصدق أن كل هذا بدأ بمزحة صغيرة .
نظرت في عينيه وهي تبرك جواره : قل أنت يا منير، ما الذي دفعك لتطلبني للزواج .
قال بعفوية : رغدة كانت الكلمة الأولى، أو لأقل المزحة الأولى .
قاطعته دَهِشة : رغدة صديقتي؟
- كانت تزور أختي منيرة، عموماً أنا لم أرها حتى الآن ..
قاطعته دهشة مرة أخرى : صحيح إنها لم تحضر حفلتنا ؟ !
- منذ يومين اتصلتْ بمنيرة واعتذرت لها عن الحضور بسبب ألم في كليتها، قالت بأنها لا تريد أن تعكّر عليكِ فرحة الزفاف بهذا النبأ السيئ وأنك في زحمة المباركين لن تفطني لغيابها، بدأت تهز رأسها وهي تصغي إليه : وقعتُ على ألبومها على طاولة منيرة ولي علم أن ألبوم أي فتاة لا بد أن يحتوي على صور لفتيات فائقات الجمال، أو كأنهن يتبارين بجمالهن وأناقتهن .
وقعت نظراتي على صورة لك قرب شجرة ورد، قلّبت الألبوم ورأيت صوراً أخرى في لقطات بديعة أسحرتني ولا أدري كيف خرجت من شفتي كلمة: هي .
كانت منيرة مستغرقة في قراءة مجلة، فانتبهت إلى سماع الكلمة وقالت : هل قلت شيئاً يا منير؟ أريتها صورة وقلت : مَنْ هذه؟
أمعنتْ في الصورة، ورفعت رأسها قائلة : والله لا أعرف، علّها إحدى صديقات رغده .
- : مّنْ هي رغدة؟

- : ألم تر رغدة التي تزورني أحياناً، وقبل أن أجيب أردفت :
آ ، صحيح ، أظنك لم ترها، كيف تراها وهي فتاة محافظة جداً .
قلت بشيء من المزاح وأنا أتأمل الصورة :

هي البدر حسناً والنساء كواكب وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسناً على النساء مثلما على ألف شهر فضلت ليلة القدر

نهضت منيرة قائلة: مهلك، مهلك يا أخي ألا تعرف من هي أولاً.
قلت مخاطباً الصورة :
عذبة أنت كالطفولة كالأحلام
كاللحن كالصباح الجديد ،
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء
كالورد كابتسام الوليد .
قالت منيرة: ما أعجبك فيها؟
قلت متأملاً وجهك:
فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسناً الضد يظهر حسنه الضد
قالت منيرة: تمهل حتى تراها
قلت:

سأظهر في هواك إليك سري وما أدري أ أخطئ أم أصيب

أرى هذا الجمال دليل خير يبشرني بأن لا أخيب

فلم تجد منيرة بداً من أن تخبر رغدة لتعرف إن كنتِ مرتبطة أم لا وذلك بطريقة بعيدة عن إعجابي بك، وكان ما قالته رغدة لأختي دافعي الأكبر لأنظر جدياً في أمري .

رأيتني ماضياً في مسار جاد نحو مملكة الميثاق الغليظ عندما عرضت الأمر على أمي التي هي أقرب وأغلى الناس علي، وقد زادت قرباً وغلاوة بعد ذهاب أبي إلى الرفيق الأعلى . بالنسبة لي كان القرار منتهياً من خلال رؤيتي الصور ومعرفتي أنك غير مرتبطة، لكن أمي رأت أن ننتظر أياماً لتتخذ هي أيضاً قرار الموافقة على أن يبقى الأمر في سرية تامة ما أمكن . في البدء رأت أن تذهب منيرة مع رغدة في زيارة قصيرة إليك دون أن تعلم رغدة دافع هذه الزيارة حتى يبقى تصرفك تلقائياً فتراك منيرة كما أنت دون استعدادات للقاء كهذا .

- أنا فوجئت بها تخبرني أنها ستزورني مع إحدى صديقاتها، وبالفعل استقبلتهما دون أن أي ترتيب وأذكر أنني قدمت لهم شاياً مع قطع كاتو، وجلست أمي معنا لدقائق ثم انصرفت بدون أن يخطر ببالي أي شيء مما تقول لأن رغدة لم تلمح لي حتى بإشارة صغيرة، كانت منيرة غارقة في الهدوء لا تتحدث إلا عندما تضطر لذلك.
- بعد عودة منيرة بانطباع مشجع عنك، أمهلتنا أمي يومين آخرين استعانت فيها بصديقتها المحببة التي تربط بينهما

صداقة حميمة منذ الطفولة، وهي امرأة ما تزال تحافظ على جمالها ورشاقتها وتتمتع بروح الدعابة والنكتة رغم بلوغها الخامسة والخمسين. أذكر أنها كانت تزور أمي منذ أن وعيت على الدنيا، كانت في طفولتي دوماً تحمل لي معها الحلوى، وما من مرة أتت إلا وأعطتني قطعة نقود.

- كانت تمضي ساعات طويلة مع أمي وأحياناً كنت أرى أبي يشاركها الجلوس، يدخنون جميعاً ويحتسون القهوة تارة، وأخرى يشربون الشاي. كانت أغلب زياراتها لنا بعد الغذاء، وفي أوقات منقطعة ونادرا تأتي في فترة الصباح وتعود إلى بيتها وقت الغذاء قائلة أنه وقت رجوع زوجها من العمل وأولادها من المدرسة.

علمت فيما بعد أنهما كانتا في حيين مجاورين في المنطقة التي تبعد عن بيتنا نحو مئة كيلو متر،وشاءت الظروف أن تسكنان في حيين مجاورين في زواجهما أيضاً، ولذلك عندما تزور أهلها فإنها تزور أهل أمي وتأتي بأنباء وسلام وما ترسله جدتي معها. وتفعل أمي ذلك عندما تقوم بزيارة أهلها.

- شوقتني إلى هذه المرأة، ما اسمها ؟ ٠
- اسمها غالية، أعلمتها أمي بذلك فذهبتا تسألان عن طبائع هذه العائلة وعن ماضيها وعدد أفرادها وسلوكهم وأعمالهم وكان ذلك من خلال امرأة تقرب لزوج غالية بالقرب من بيتكم لا أذكر اسمها رغم أنني سمعته أكثر من مرة، ولكن بدون أن تعرف شيئاً عن سبب هذه الأسئلة لأن غالية كانت تقذف الأسئلة بطريقة غير مباشرة فتلتقط أمي المعلومات.

بعد انتهاء هذه المهلة اقتنعت أمي بك وقالت بأنها مستعدة أن تمضي في ذلك على نحو أكثر جدية، كانت الخطوة الأولى أن أرسلت غالية لأمك تخبرها عن شاب يريد خطبة ابنتها وهي تقدم لها كافة المعلومات عني .

- فاجأتني أمي بهذا النبأ وصرت في دوامة، فمن يكون هذا ..وأين التقاني، طلبت منها أن تمهلني يومين حتى أفكر ولا أكون متسرعة في قرار أراه، زادت حيرتي في هذين اليومين، فمن سأسأل وأنا أجهل كل شيء عنك، بدوت لي لغزاً غامضاً، كان من الحمق أن أرفض بدون أن أعلم شيئاً ولو يسيراً عنك، وكذلك من الحمق أنأبدي موافقتي. واهتديت إلى أن نلتقي في بيتنا فتبدأ معرفة عن قرب. فعرضتْ أمي الأمر على أبي وأعطته ما قالته تلك الزائرة المفاجئة من معلومات عنك. اندهش أبي خاصة وهو يعلم بأنني لم أره ولو مرة واحدة، ولا توجد لي أي سبق معرفة به، وقد تفاجأت كما تفاجأوا.
- في المساء تم طرح الموضوع بشكل علاني على كل من في البيت بعد أن حضر أخي المتزوج الذي يسكنفي بيت منفصل عنا، فانتهى بهم النقاش إلى معرفة معلومات عنك من خلال الجوار الذين يخبرونك عن قرب.
- عندما أتت غالية بخبر رفضي نسيت مسألة الزواج وصار هاجسي فقط معرفة السبب الذي منع والدك حتى من استقبالي في بيته وهذا بذاته سبب لي توتراً منعني من نسيان الموضوع والانصراف عنه، الآن لديك انطباع سيء عني ولا أدري ما نوعه وإذا رغبت صرف نظري عن الارتباط

بك فيكون ذلك بعد أن أصحح هذا الانطباع السيئ، وإذا كانت ثمة سلبيات يعلمها الآخرون وأجهلها في شخصيتي فسأعمل على معالجتها. لكنني أمضيت شهرين من أسوأ شهور حياتي دون أن أصل إلى نتيجة، وبدوت أمام نفسي مهزوماً، أو لأقل ضائعاً. عندها راودتني فكرة الاتصال بك لغايتين، أولهما رغبت معرفة رأيك بشخص أراد الارتباط بك دون سبق معرفة ومعرفة موقفك الشخصي من هذا الرفض، وثانيهما لأعرف منك السبب الذي دفع والدك إلى رفضي.

- أي فتاة تكون في حلم أن يأتي فارس أحلامها فجأة وهو يطلب أن يخطبها، قيل لي أن هذا الفارس ظهر وطلب أن يزور بيتنا ليراني وأراه، ولكن أبي كان له رأي أن يسأل عنك قبل أي خطوة لأنه لا توجد بين عائلتينا سبق معرفة، ولم تحدثني رغدة بأي معلومة عنك.
- بعد أيام قال أبي بأنه كلف أخي الكبير بمهمة السؤال عنك، وقد سأل تسعة أشخاص حتى تتبين الحقيقة. فكانت النتيجة أن خمسة أشخاص تحدثوا بسلبية، وقال شخصان بأنك حسن ولا بأس بك، واثنان راوحا بين السلب والإيجاب. هذا ما أخاف أبي وأخبرنا في جلسة عائلية ضمت كل أخواني وأخواتي كباراً وصغاراً بهذا الذي حدث، وكان شبه إجماع على الرفض باستثنائي واستثناء أختي الصغيرة الطالبة في الصف الثالث، لقد قالت ما لم أجرؤ على قوله بأن يسأل أبي نفسه أشخاصا آخرين.

- قلت لأختي أن تأخذ رقم هاتفك من رغدة دون أن تخبرها رغبتي في الاتصال بك. لم يبق أمامي غيرك لتدلني على سلبياتي، ولا أخفي بأن صوتك الذي سمعته في الهاتف لأول مرة كان له وقع الصاعقة في قلبي، وأنت تتحدثين صرت كلي رغبة في أن أراك.
- يومها فوجئت باتصالك ولكنني قلت في نفسي: إذا أغلقت السماعة سأكون في نظره امرأة غبية، سيقول: لو لم تكن غبية لعرفتني بنفسها ومن ثم حكمت علي عن معرفة.
- هذا بذاته زادني إعجاباً بك فقلت في نفسي: أي امرأة ذكية هذه، تقف موقف حكمة. ولكنني أخفيت هذا وقلت بأنني فقط أريد أن تساعديني في معرفة السلبيات التي وصلتك عني.
- أتعرف، يومها صُدمت بقولك هذا، ولأول مرة أمعنت في كلمات أبي، فهو بالفعل قال أن أحدهم قال لأخي بشكل حاسم موجز: أخي، أنا لو كانت لدي قطة لما أعطيتها لهذا الشخص، إن أردت إعطائه أختك فذنبك على جنبك.

وقال آخر: سيء للغاية.
وقال آخر: لا يصلح أن يربي دجاجة.
وقال آخر: لو كان ابني لطردته من كل هذه البلاد.
وقال الخامس: أنصحك الابتعاد عنه.
لا تتصور كم شعرت بالخجل منك وشعرت بقصر نظر والدي أمامك، فهذه كلمات خالية من أفعال، فما هي أفعالك التي دفعتهم لقول ذلك. وأيضاً ما هي التي دفعت الشخصين الآخرين ليقول أحدهما: إنه شخص هادئ.
والثاني: تمنيت لو رزقني الله ولدا بمثل رزانته.

وكما تقول أنت، فقد ولد في أعماقي هاجس لأعرف هذه الأفعال، حتى لو كانت فقط من أجل الاستطلاع.
ورأيت أن أعيد أخي وسيم إلى ذات الأمر، فقلت في خلوة بيني وبينه: يا أخي أرى أن أعلم شيئاً عن سيئات وحسنات ذلك الشخص الذي نظر في خطبتي منذ شهرين، أريد أن تعود إلى من ذهبت إليهم أول مرة فتعلم براهينهم عما قالوا، فإنه والله لم تهدئ لي نفس من يومه وأنا شاردة، وما زاد في اضطراب نفسي أنه حدثني في الهاتف الشهر الفائت يريد أن يعرف ما جعل والدنا يرفض لقاءه.
حينها لمس وسيم اضطراب حالي وأبدا لي بأن الأخ الأكبر يشعر ببعض أبوة نحو أخواته، فأشفق بي وبدا متفهماً لما قلت وهو يعدني أن يأتي بما أرى.
مرت ستة أيام على حديثي معه فاختلى بي ظهيرة اليوم السابع في غرفتي وأغلق الباب، علمت بأنه أتى بأمر في شأني وكان في حالة إرباك فعاجلته:هه أخي؟
رفع نطره إلي وهو يقول: ليتني ما دخلت هذا الأمر أبداً، إني مستاء لما وصلت إليه وما كان علي أن أعجل في أمر رآه الله خيراً.
قلت وأنا أنظر في وجهه المضطرب: وما الذي رأيت.. أخي؟
مد خطاه نحو النافذة وراح ينظر في بعض زهرات بجانبها، ولبثت واقفة مكاني أنتظر ما يبدر منه.
قال وهو ما زال ينظر في الزهرات وأنا أنظر إليه مولياً ظهره إلي: قال لي السمان: لا خير فيه لأنه يمر بجانب دكاني فيشتري

حاجاتـه مـن أبعـد دكـان إليـه، أنـه يعصـي دينـه الـذي يقـول:" الأقربون أولى بالمعروف".
تركتـه ورحـت اللحـام فقـال: برهـاني أنـه مـا اشـترى يومـاً منـي حاجته، ألست أولى بالمنفعة وأنـا علـى قرب خطوات من بيتـه.
تركتـه ورحـت النجـار فقـال: لا خير فيـه، برهـاني أنـه قـام ببنـاء غرفتين وجلـب نجـاراً دونـي ومـن يومهـا أتحاشـى حتـى السـلام عليه، إنه في اعتقادي خرج عن دينه الذي يقول له:" الجـار قبـل الدار" .
تركته ورحت العجوز الذي يفترش الرصيف وهو ينتظر موتـه عليه فقال: برهاني أنه شخص مهووس بقراءة الكتب، مـا رأيتـه يمشـي يومـاً إلا بيده كتـاب، وبلغنـي أن بـه شـيء مـن الظـن فهـو يحرم أمه وأخته الجلوس أمام الباب كسائر أهل الحي.
تركته ورحت الحلاق فقال لي: كان في البدء طيباً يتردد إلي كل شهر فـأحلق شعره، مرة ضـاقت بـي الأمور فعرضـت عليـه أن يقرضني ديناً فلم يفعل ومن يومه ما وطأت قدماه محلي.
قلت: فأكمل مهمتي. ذهبت إلـى المدرس الـذي يسكن قبالـة بيتـه فقال: برهاني أنه شخص هادىء خلوق هو أننـي مـا رأيتـه يومـاً إلا وبيـده كتـاب، وهـذا دليـل أنـه يمضـي فراغـه فـي المطالعـة والمعرفة. مرة قالت زوجتـي لأمـه: مـا لكمـا لا تقعدان معنـا فـي الشارع. قالت أن ولدها يقول: لنترك للطريق حرمته. فعلمت أن علمه دفعه إلى هذا وبدأنا نمتثل لقولـه. مـرة أخـرى جـاء يسـألني عن عمل جارنا النجـار الـذي بنـى لـي غرفـة. فقلت لـه بـأنني مـا ندمت على شيء كندمي على يوم أتيت به لبنـاء غرفـة، لقد كـان سيء الخلق وجاهلاً بأصول البناء ومضاعفاً للأجر.

تركته ورحت الموظف المتقاعد فقال: ما رأيته يوماً إلا وقلت: ليت الله رزقني بولد مثله، برهاني أنه حكيم ورزين، مرة جاء يخبرني أن الحلاق طلب منه ديناً، فنهيته عن ذلك لأن الحلاق مدان منذ ثلاث سنوات لشخص وينكر عليه دينه. وهو شخص مؤمن لأنه عمل بما أمر الله: " ولا تأتوا السفهاء أموالكم". ورأيت أن أدله على سمان ولحام يبيعان بهدي الله.
توقف أخي عن الكلام وهو ما يزال لا يوليني وجهه، ثم بعد برهة صمت قال وهو يستدير ماداً خطاه نحو الباب ليخرج: هذه براهينهم يا أختي، فانظري ماذا ترين.
لحقت به وقد بلغ عتبة الخروج: أرى أن تحدّث أبي فنعيد النظر في الأمر كله.
عند ذاك تناهت ضربات خافتة على الباب أعقبها صوت منخفض:هذا موعد الفطار.
قطع الصوت استغراقهما في عمق الحديث، وانتبها للتو إلى الشمس داخل الغرفة فقال: ألا ترين بأننا نسينا شيئاً هاماً في ليلة زواجنا الأولى.
نهضت قائلة: اخجل يا رجل، إننا في غربة.
فدخل العامل حاملاً لهما طعام الصباح وهو يقول ببسمة طفيفة: صباحية مباركة ٠

دفء العش الأول

قلتها يا غانم، قلتها بكل قسوة، تلك الكلمة التي تبقى ترعب أي امرأة منذ اليوم الأول لزواجها، أطلقت النار على حواسي ومستقبلي، وأشعلت النيران في شهد الماضي رغم سنوات الإخلاص والاستقرار التي أدفأتنا بثلاثة أولاد صغار يشبهون الملائكة، تأتي لتترك هذه الزهور الطالعة للتو يتامى من أجل نزوة عابرة، كم أنت نرجسي أيها الرجل، حتى فلذات كبدك

ستشقيهم لترضي نزوتك، وأنا التي ظننت أننا انقسمنا إلى ثلاثة أطفال كل واحد منهم يحمل جزءا وجزءا مني، وهذا البيت الذي بنيناه لبنة لبنة بطين الروح ليكون عشاً آمناً لهذه الأسرة الصغيرة التي نسجناها ستحيله إلى بيت واهن كبيت العنكبوت، سيصبح هشيماً تذروه الرياح، هكذا في منتصف الطريق تتركني وتقول: وداعاً، من أجل عدوانية غريزتك، وكأننا لم نرسم طريق التوحد معاً، أحياناً كنت أخشى الموت لأنه يشتت دفء هذا العش الآمن ويبعدني عن حميمية أطفالي وعن رائحتك، لكنك تخليت في منتصف الطريق واخترت درباً غير الذي رسمناه لمستقبلنا، يا لي من حمقاء، لا لم أكن حمقاء، بل كنت مخلصة وصادقة إلى أبعد ما كنت تتصور.

- هل تظنين بأنك أكثر عدلاً من شرائع السماء والأرض، ألم تكن هذه الشرائح مدركة وهي تحل امرأة ثانية لزوج على رأس امرأته وولده، أنت ستهربين من عشك ومن فلذات كبدك ومن رائحة الرجل الذي أحببته، لا أستطيع أن أخادعك، أجل بي رغبة بهذه المرأة التي تسمينها / ضرة مرة/ بالنسبة لي هي ضرة حلوة، فلماذا تؤثرين أنانيتك على رغبتي، إن هذا العش يتسع لتلك المرأة التي ملتُ إليها وأظنه سيكون أكثر دفئاً بها، وإن كنت تسمينها ضرة، فأنا أجلب لك صديقة، إنك تضطهدينني باسم الإخلاص، وأنا لست خائناً كما توصمينني، بل تنظرين إلى حرماني من حق وهبته لي السماء، ولو كان الأمر معاكساً لما كان بوسعي أن أحرمك حقاً أباحته لك الشرائع.

- لكنك رغم ما تقول فقد أهنتني في كبريائي، ولتعلم أن عزة نفسي لتمنعني من العيش في عش مناصفة مع امرأة دخيلة علي وعلى أولادي وزوجي وإنني أفضل أن أنسحب بهدوء إلى بيتي الأول الذي لا بيت لي غيره. سأعود إليه مهزومةكجندية هاربة من أسر .

كان هذا الحديث الأخير الذي دار بين السيد غانم وبين زوجته السيدة تركية منذ عشر سنوات، فلبثت هذه الزوجة وحيدة ترفض الزواج ثانية وهي تقيم في بيت أبويها بعد موتهما، فيزورها أولادها الثلاثة كل حين ويحملون لها الهدايا. منذ شهر وهي تستعيد وقائع هذا الحديث الأخير وتشرد فيه فقد قالت لها ابنتها الكبرى أن أباها قد ألمح لها بأنه يريد أن يسترجعها إلى عصمته، وعندما أبدت زوجة أبيها امتعاضاً ألمح لها بأنه مستعد للتخلي عنها كما تخلى أول مرة عن زوجته الأولى، فبدت تظهر قبولاً للفكرة وقالت للابنة: سنستقبل أمك يا بنتي بترحاب وأنا حزينة على ما حدث، ولعلها فرصتي كي أصلح ما كنت سبباً به.

في الزيارة الأخيرة قالت لابنتها الكبرى: قولي لأبيك إن كان راغباً، فإنني راغبة مثله للعودة إلى عصمته.

وعندما غابت ابنتها أحست أن شمساً كانت غائمة منذ عشر سنوات غدت على وشك الشروق لأول مرة بعد عقد من ظلام، وتمتمت في سرها وهي تنظر إلى علامات خيوط الشروق الأولى: لقد نضجت الآن يا تركية، يبدو أنك كنت في طيش الصبا، وما الذي يحدث إذا رغب في امرأة أخرى، ها قد دفعت

عشر سنوات من الظلام نتيجة تعصبك، لقد نسيت فيها بأنك امرأة تحتاج إلى رجل.
نظرت إلى بطنها وعادت تتمتم: لكن هل سأكون قادرة على حمل طفل مرة أخرى؟ وأجابت: ولم لا، أجل سيكون ذلك حملاً رائعاً كمطر ينزل بعد عشر سنوات جفاف. ثم فتحت النافذة وشرعت توزع نظراتها لتقع على الضوء القادم من بعيد .

شروق شمس الحــب

منذ ثلاثة أيام والمطر يهطل بغزارة وفي مدينة صغيرة كهذه أو في قرية بدأت تتسع وتأخذ شكل مدينة كهذه، يعني ذلك بشكل طبيعي انقطاع الماء والكهرباء والهاتف معاً. ولأنها بالفعل قرية بدأت تأخذ شكل مدينة وناسها يستغنون عن أي ميزة مدنية مادام المطر يهطل فإن ذلك لا يسبب لهم أي مشاعر استياء تجاه هذا المطر الذي يبشر الناس وبكل الشرائع بمال وفير، ويمكن لهم أن يحتفلوا على ضوء شموع، أو حتى يعودوا ليس كثيراً إلى الوراء فيحتفلوا على ضوء الفوانيس بهبة السماء التي ستحيل هذه القرية إلى جنة من خضار. فترى منظراً مظلماً عاماً ينهمر بقوة إلى جانب الريح والبرد، وربما يسمع شخص يجري ليلوذ بأقرب مكان يمكن أن يوفر له قليلاً من دفء، ربما يسمع هذا الشخص الذي بالطبع سيكون حاملاً بيده قنديلاً أو فانوساً يضيء أمامه الدروب الموحلة، أجل ربما يسمع هذا الشخص شيئاً من مذياع يعمل بالبطاريات من إحدى البيوت التي يمر بجانبها. أجل ليس من السهولة أن تأتي المدينة فتقتلع هؤلاء من جذورهم القروية، ففي هذا المكان ترى بيسر أناساً مازالوا يصرون على سماع نشرات الأخبار من مذياع عمره قرن من الزمن، ولا تكاد نشرات المساء الأخبارية من إذاعتي لندن،

ومونتيكارلو تفوتهم، وترى أناساً مازالوا يتمسكون بأوقات تختلف عن الوقت الحكومي من خلال ساعات يحافظون على أماكنها الطبيعية معلقة بسلاسل أنيقة في جيوبهم ولا يمكن لهم بأي حال أن يضعوها في أياديهم ويعدون ذلك شأناً خاصاً بنسائهم، فالمرأة يليق بها أن ترتدي ساعة ذهبية في معصمها يوم زفافها وكذلك في السنوات الأولى من زواجها. ولا يمكن لهم أن يتخيلوا ذلك على أنفسهم بأي حال من الأحوال، ومنهم من مازال يستخدم البوصلة لمعرفة الجهات، والقمر والنجوم والغيوم وحالة السماء في معرفة الطقس وأوان المطر. ونساء مازلن يخبزن على الصاج أو على التنور، ويطهين الطعام على الحطب حتى لا يفقد نكهته ويقمن بتربية الدجاج واستخدام بيضه وريشه للوسائد، وترى نساء من أسر عريقة مازلن يحتفظن بطريقة حفظ اللحم في سلال، وهو لحم مملح أو ما يسمينه بـ"القلية" يستخدمنه طوال فصل الشتاء وعادة ما يكون بطل هذه المونة عجلاً أو عجلين في الأسر الكبيرة والميسورة.

وإن كان شكل المدينة قد حد من تربية المواشي فيها فإن أي قوة لا تستطيع أن تمنع الناس بشكل نهائي من هذه المهنة التي ربما تحولت إلى هواية بسبب إضفاء شكل المدينة على المكان ذاته الذي كان قرية صغيرة من قرى العاصمة، فالمدينة الكبرى كانت العاصمة، وفيها كل ما يمت إلى المدينة. فترى الناس يقومون بتربية الدواب من أغنام وأبقار في الأحياء الشعبية، وقد ترى حتى في الأبنية وفي الطوابق خروفاً صغيراً يسرح على البراندا، أو ترى خروفاً في باص النقل الداخلي. فالمدينة بالنسبة لهؤلاء بحر غريب بلا قرار ولا أحد يعرف أين يودي بهم، وأنه

أول ما يفعل يقتلعهم من عراقتهم وتأصلهم في المكان. لم أكن أرغب في أن أسرد كل هذا الحديث عن المكان الذي بطله شخصان أو لأقل: عاشقان ،شاء المطر أن يعرفني بهما ويدخلني إلى تفاصيل عالم إنساني رقيق. وكان ذلك عندما رفعت سماعة هاتفي في الواحدة ليلاً لاتصل بامرأتي وأصابعي مترددة من الضغط على الأرقام، عند ذاك تناهى صوت إلى سمعي فأقفلت السماعة حتى لا أسمع شيئاً لا يخصني، وعلمت أن المطر قد شبك خطي بآخر مادام لم يفصله بشكل نهائي.
رغبت في فنجان قهوة وبسيجارة في هذا الوقت الممتع بالنسبة لي مادام المطر قد منعني من قول كلمات عن الحب للمرأة التي رأيتها تستحق أن أقول لها شيئاً كهذا والعالم كله يحتفل منذ ساعة واحدة بعيد الحب. كان بودي أن أقول لها: كنت أرجو أن تكوني هنا لنحيي ليلة الحب الكبرى هذه معاً. ولكنه المطر الذي شاء ألا أقول لها ذلك. ومع انتهاء فنجان القهوة اندفعت مرة أخرى إلى الهاتف، جاء صوت: أعرف جيداً بأن العالم كله يحتفل بعيد الحب الآن، ولكن أعرف أيضاً بأن واحداً من هؤلاء جميعاً لم يعرفه بقدري.
هذه الكلمات التي تسربت إلي أبقت السماعة مرفوعة رغم إحساسي بحرج شديد وأنا أصغي كاللصوص لشيء لا يعنيني، ولكنني لبثت أصغي على ضوء شمعة تجاهد ألا تنطفئ. : وأنا في كل هذا الحب لك أدرك مأساة امرأة تقترن بلا حب.
قال: أظن أنه لا يوجد أتعس من ذاك الرجل الذي أُرغم على الزواج من امرأة لا يحبها.
قالت: انتظرت ثلاثين سنة كي أقي نفسي الزواج ممن لا أحب.

قـال: علمنــي حبـك كيـف أن الزهـور تنبـت فـي تربـة أرواح العشاق، كيف أن العاشق يغدو حديقة ورود، إنسان لا يحب هو إنسان ميت، كنت قبل حبك أجاهد ألا أموت وأنا أبحث عنك، وعندما وجدتك اندفعت إليّ حياة لم يكن لي عهد بها من قبل.كل أشرار العالم هم أشرار لأنهم لا يحبون ومتى ما أحب الإنسان طهر قلبه الحب واقتلع منه كل الأشواك. الرجل الذي لم يذب في حب امرأة ولو مرة واحدة في حياته يبقى رجلاً ناقصاً مهما تبدّى له أنه كامل.إنني أستمع الموسيقى وأتذوقها بشكل جيد وأنا مرتفع إلى حبك ٠

قالت: الحب يضخ القوة في عروقي نحو الحياة، قبل حبك كنت أعيش فقط لأنني لم أكن ميتة، الآن أعيش لأجل أن أحبك، وحتى أصنع مملكة الحب العظيمة. إن الإنسان يسمو بالحب، وينحدر بدون حب.

غدت الساعة الثالثة والنصف وهما في ذروة متعة تبادل كلمات عناق الروح، وأنا في ذروة الاستماع لأحب عاشقين عرفتهما، واكتشفت أن الأشياء العظيمة دوماً تصل متأخرة، وهذا سر عظمتها، كانت امرأة في الثلاثين، وكان في السابعة والثلاثين. سبع سنوات أحبا بعضهما بصمت حتى دون أن يصارحا نفسيهما بهذا الحب.

كانت تفضل أن تمضي حياتها دون رجل على أن تقترن برجل لا تحبه، لم تكن تطيق أن تتخيل ساعة واحدة برفقة من لا تحب، وكانت ناجحة في عملها تلفت أنظار الكثيرين لكن أحداً لم ينجح في أن يدخل مملكة قلبها. وكان هو بذات المواصفات ناجحاً في عمله ووسيماً يلفت أنظار عشرات الفتيات، ولكن

واحدة لم تنجح في أن تدخل مملكة قلبه. كان يعرف بأنه يميل بعواطفه ومشاعره إلى زميلته ولكن كبرياء الحب منعه من البوح، وبعد سنوات من هذا الحب الصامت المتبادل تفاجأ بغيابها عن الدائرة فراح يسأل عنها ويتصل بها في البيت. وعندها علم أن والدتها توفيت، لقد كانت الأم والأخت الصديقة، فأحست بفراغ هائل وأن الحياة غدت مظلمة لا ضوء فيها، لكن قوة الشخصية التي تتمتع بها حمتها من الانهيار ٠ في لحظات امتلأت برائحة الموت بدا وجه الكون أكثر ظلمة، أكثر لغزاً، أكثر ضياعاً من أي وقت مضى. كل لون ارتدى السواد الطافح برائحة موت أعز كائن على القلب. في تلك اللحظات المأتمية المستبدة بحواسها أشرق كشمس مباغتة في منتصف ليلة شتاء حالكة. وقفت تتملا دخوله من الباب، رأته شمساً في بيتها هذا الوقت الأشد سوداوية. أحست أن طائراً فر من كبدها إليه. اندفعت بقوة الروح والجسد، لكنها قبل أن تصله استطاعت أن تقمع قوة الاندفاع الهائلة بقوة شخصيتها تاركة طائرها يحلق على رأسه، ثم تمتمت له بنبرات روحية لا يسمعها: لكنك أنت الشمس التي لا تغيب، كل سنوات الحب الصامتة انفجرت كبركان من أعالي قممك الآن، زادتني يقيناً وأنت تشرق على ظلامي. كأن لا شمس غير شمسك، كأن لا زملاء غيرك ،لقد أتيت حافياً إليّ في هذا الشتاء القارس. مد إليها كف التعزية وعبارات الخشوع ترتجف في فمه: من تركت خلفة مثلك لن تموت. ثم قالت عيناه لحدقتيها: تحمل الحياة مفاجآت سارة كذلك.

عندئذ راودهما شعور مشترك أن رائحة حب مكتوم بدأت تفوح منهما في وقت غير مناسب لرائحة كهذه، فلم يتردد أحد الناظرين دهشاً إليهما أن يهمس لمجاوره: يبدو أن حباً أشرق على هذا الظلام ٠

طَـرَ قاتُهـــا

أنفضتني عيناي عندما انفتحا فجأة واتجهتا إلى الساعة المعلقة في الحائط: الخامسة وست دقائق، لا أعرف كيف أخذتني الإغفاءة في ذروة الانتظار لكن أذكر بأنني بقيت إلى الثالثة والنصف. أزحت الستار، السماء تغسل وجهها المبارك بضوء الفجر .. فتحت النافذة، تسرب هواء قارس إلى دفئي كما لو كان ينتظر الدخول منذ ساعات، انتبهت إلا أنني أقف حافياً، تركت النافذة مفتوحة وتراجعت إلى الوراء، رغبت بالعودة إلى فراشي الدافئ بقوة لكن الموعد أبعد الفكرة ففي السابعة والنصف ستصل ستقطع مسافة ثمانين كيلو متراً وستصغي لثلاثين أغنية لفيروز في السيارة حتى تهبط لا بد أنها متيقظة الآن.. تستعد للخروج أو الركض من فراشها، قالت بأنها ستصعد في رحلة السادسة والنصف الصباحية الأولى وستكون هنا في السابعة والنصف يخرج الضباب من فمها مثلما كانت في الشتاء الماضي، ها هي سنة أخرى تمضي كالحلم، ها هو ذات اليوم، وها هي بذاتها وقد كبرت سنة أخرى ، مرة أخرى تقنع أهلها بضرورة الحضور إلى مديرية التربية بشأن عملها كمعلمة، خلال هذه السنة كانت البرقيات السريعة والرسائل والهواتف وكانت القبلات التي لا تصل كانت تحكي في منتصف الليل وفجأة تقفل الخط وتقول: لا بد أن أحداً يسرق الحديث لا بد أن هناك لص أحاديث وفي اليوم التالي تقول: ألن يكون هناك

لصوص على حركاتنا عندما نموت في المقابر. أعرف بأننا نتسول الحب وهاهي ستتسولني وهاأنا سأتسولها ،سنتسول إ ثني عشر ساعة متواصلة من جيوب هؤلاء الحراس ولا أخفي بأنني أرتب لهذا اللقاء السنوي منذ عشرة أيام وأهيء كلي له٠ علاقتي بها تحمل كل خصوصياتي وحتى لا يحدث خلاف اتفقنا على عدم التفكير بأي ارتباط يمكن له أن ينهي هذه العلاقة، اتفقنا على طفولية علاقتنا ،تهمس لي ما تخفيه وأهمس لها بخفية تامة ما أخفيه عن العالم وما أخفيه عن حالي ستكون هنا.. أجل مرة أخرى سنلتقي بمفردنا في مكان مغلق بمفاتيح الروح، سأقول لها ما لا أقوله لها حينما تدخل مرة جديدة بخطواتها الصغيرة كأنها تدخل لأول مرة.. كأنها تدخل لآخر مرة.. وعندما تجلس وتضع حقيبتها بجانبها، مرة أخرى ستنظر إلى آلة التسجيل وتقول بخفوت: أريد أن أستمع الأغاني في بيتك.. نكهتها هنا غريبة، وفي فترات الاستراحة ستقلب الأشرطة والكتب والصور والجرائد، ستبحث عن شيء ما لا أعرفه ولا تجده كعادتها.. حينما تمضي اثني عشر ساعة متواصلة، ستقول قبل ذهابها في اللحظات الأخيرة جملتها في أذني مرة أخرى: جئت في الرحلة الأولى، وسأذهب في الرحلة الأخيرة، سينتظرني مقعدي الذي حجزته ربما ستتأخر الرحلة خمس دقائق في انتظار خطواتي المتأخرة الراكضة. ستعانق الروح الروح، ستعانق الحواس الحواس وستلتقي نظراتنا طويلاً مرة أخرى، ستقول ما تعجزعن قوله في الأحاديث الهاتفية التي تشعلها.

طرقاتها،، يا لوقع طرقاتها على سمعي،، ستعود تلك الطرقات المباركة مرة أخرى تقع على بابي وأي محظوظ هذا الباب،، هل سيحتمل أن يبقى مغلقاً للحظات وهي تطرقه أم أنه سينفتح إجلالاً لوقوفها ولبخار الصباح الذي يخرج من فمها وأنفها.
استحممت، حلقت ذقني، ارتديت ثياب العيد، لمعت حذائي، بعد أن شطفت كل ركن من أركان البيت، رتبت كل شيء، لأول مرة منذ سنة كل غرض يجلس ويقف في مكانه، بخخت ما في قنينة العطر على ثيابي وعلى كل البيت بجدرانه وسقفه،، وملأت فيروز البيت كله وهي تغني بصوتها الصباحي للعيد والمطر. انفضتني طرقة، هرعت إلى الباب، كانت على باب جاري، عدت إلى الداخل والساعة بلغت السابعة والنصف إلا خمس دقائق، بعد دقائق ستصدح تلك الطرقات الخالدة مرة أخرى على بابي، لم يسبق لهذا الباب أن أسمعني أرق وأحن من هذه الطرقات، وأي طرقات أخرى من أي يد كانت لا ترتقي إلى جمالية طرقاتها لم يسبق لي أن استمعت إلى تلك الموسيقى المدهشة التي تبعثها طرقاتها إلى سمعي،، إنها أحد أسرار تلك الطرقات المموسقة،، مرة فكرت أن أسجل تلك الطرقات لكنني خفت أن تخفي حرارتها، تكون باردة، خفت أن تفقد قداستها،خفت أن أسيء إلى جماليتها، هاهي ستطرق بكبرياء على بابي، كل حواسي في حالة ترقب لطرقاتها المرتقبة،، طرقاتها الساحرة،، طرقاتها التي لا تشبه طرقات مخلوق آخر غيرها.

وقعت طرقات على بابي، هرعت بسرعة.. فتحت الباب: هل ستعطيني شيئاً؟ عدت إلى الداخل حملت رغيفاً وناولته للطفلة الحافية التي ترتجف ربما من الجوع والبرد معاً.
اشتعلت كل حواسي في انتظار تلك الطرقات،، صرت كالمدمن الذي يستعد لفعل أي شيء،يا لتلك الطرقات الجليلة ، طرقات من سارت ثمانين يلو متراً من أجل أن نلتقي، طرقات انتظرها من سنة كاملة تحمل معها نكهة العيد٠ وبغتة ارتجفت مفاصلي،، سرت نشوة في عروقي،، ترنح سمعي، وخرجت من العالم، دخلت عالم طرقاتها، طرقاتها،، طرقاتها،، أجل، طرقاتها التي ملأت كل مفاصلي وفراغات الروح،هاهي طرقاتها المدهشة تقع على روحي وحواسي، وها أنا أدخل عالم طرقاتها الهائل،،أستحم بموسيقاها ، أتعطر بها، وصوتها الصباحي الاحتفالي يعلو: افتح..أم أنك لا تسمعني،، وتزغرد الطرقات..أمد يدي : هل حقاً سأخرج من عالم طرقاتها؟
وعادت كفي، تراجعت إلى الوراء ارتمى جسدي المخدر على كرسي، انغلقت عيناي والطرقات تخترق العروق، والنبرة الاحتفالية تقفز من خلف الباب: افتح ألا تسمع صوتي، أم انك لست هناك؟... هذه المرة تنبض طرقاتها العيدية مع القلب يستولي الخدر عليّ في عالم الطرقات الذي يزيده الصوت إدهاشاً..
تتسارع الطرقات..يرتفع إيقاعها،، تبدو صاخبة كنهايات بتهوفن الثرية بكل الآلات والإيقاعات دفعة واحدة والصوت يعلو..يخفت الصوت تخفت الطرقات وأغفو.. لا أدري كم من الوقت مضى على إغفاءتي، وعندما صحوت شعرت بأنني

عدت من عالم آخر.. تذكرت طرقاتها نظرت إلى الساعة ،كانت الثامنة والنصف ،احتلني شعور بالألم والخجل: كم كنت سخيفاً معها.

فتحت الباب وسارعت إلى موقف السيارات بحثت عنها في الشوارع ولم أعثر لها على رائحة،عدت إلى البيت خائباً ومنكسراً كشبح، لفتت نظري ورقة بيضاء كتبت عليها بخط مرتبك مرتين: أتيت ولم أجدك ... أتيت ولم أجدك ٠

قبلـــــة مـــن الرو ح

تشتعل الليالي بطيف المرأة وتلهب الحواس الراكدة كل ما راح يعود بحضوره العميق، لا شيء يكون هامشياً على مائدة الحب، لا شيء لا لزوم له على مائدة المرأة.
كل الخلايا تكون في حالة اشتعال واستنفار كل ذرة في الروح والجسد تستجيب لهذا الذي يسمونه ذوباناً هذا الذي من طبعه أن يصنع جناحين لأتعس رجل في الكون ويدفعه إلى الطيران على طريق الجنة.

مملكة المرأة السحرية، من يدخلها مرة واحدة في الحلم ينتظر طوال عمره أن يتحول هذا الحلم إلى واقع ولو لساعة أخيرة واحدة، عندئذ فقط لدى دخوله تلك المملكة الحافلة بالياسمين يدرك بأنه أعظم محظوظ في تاريخ البشر.
هي امرأة واحدة تختصر كل العالم تلك المدهشة التي تتواصل مع ملايين الخلايا ولا تنطفئ لغمضة عين واحدة،، المرأة التي لا تسمح لأي لحظة أن تحيلها إلى ذكرى،، إلى حدث وقع في الماضي إنها كالشمس التي تشرق وتتجدد كل صباح بلون جديد ورائحة جديدة.
صبيحة عيد الأضحى المباركة ينتشر أطفال الجمهورية في طرقاتها وحدائقها، كل الفتيات يرتدين أأنق ما اشترين أمسية الوقفة كل الصبايا الجميلات يشرقن كالشمس، ثياب العيد- أحذية العيد-حقائب العيد- ضحكات العيد التي لا تنتهي. صبيحة هذا العيد المباركة يهبط العيد من أعلى سماء إلى قلبي يحتلني العيد الأكثر عيداً في أعياد عمري لا بد أن اخرج، أن أرفرف كعصفور مرتبك مبلل بقطرات ندى العيد على شباكها، سيكون الدخول مباحاً لأنني عصفور مبلل ولأنها صبيحة العيد، سأجازف كطفل صغير يسمح لنفسه مرة واحدة الدخول إلى البيت الذي يشتهي، سأقلد أي طفل في تلقائية الدخول عبارة واحدة تكفي لإدخالي وتقديم ضيافات العيد لي.
أخرج إلى الطريق أمد خطواتي في اتجاه بيتها وتطاردني الكلمات في سماعة الهاتف:/أريد أن أراك في بيتنا.. أدخل بتلقائية أي طفل.كثيرون الذين يدخلون من أجل ضيافة العيد فقط/.

أكون أحدهم، هل سأرتبك، هل سأدخل وأخرج بسلام/.
أدخل شارعها ويرتدي العيد الشارع كله ببيوته وأعمدته الكهربائية وأطفاله وأرصفته، العيد في هذا الشارع أكثرإشراقا من أي شارع غيره، شارعها، يا لشارعها هل أعرف كم مرة سارت على ذاك الرصيف، وهاهو الباب،، بابها الأنيق هل أستطيع تصور المرات التي خرجت فيها منه، المرات التي أغلقته وأعادت فتحه.
وبغتة مدت وردة رأسها من شق الباب طار قلبي، أختها الصغيرة، كأنها عادت صغيرة قبل عشر سنوات
لو كانت تعرف أي أحاسيس فجرتها في قلبي هذه الطفلة، وعادت الوردة الصغيرة إلى عشها ومع مد خطوة أخرى مدت الياسمينة الملائكية رأسها ورأتني قبالة الباب،سقطتُ في نهر جليدي لأنني أدركت بأنها أحست بأنني ضبطها متلبسة في انتظاري ولاستدراك هذا الشعورد نوت بثقة٠ قالت لي بصوت احتفالي :/كل عيد وأنت تأتي/. دخلت بشوق إلى رؤية تفاصيل البيت، تقدمتني مرتبكة كورقة خريف ٠٠ هذه المرأة الحرائقية التي لا تعرف غير إضرام الحريق في الروح. وهرعتْ إلى الداخل حاملة طبق الضيافة٠ لم أكن أتصور بأنني سأظفر بكل هذه العطايا السخية وقوة العالم كلها لا تستطيع أن تقنعني بأنني لست طفلاً أمارس الطفولة أكثر من أي طفل في العالم، وليس بوسع لغة من لغات العالم أن تعبر عن لحظة من اللحظات التي أعيش تفاصيلها المباركة وأنا أمد يدي إلى/الطبق/ العامر وأخطط لتحويل قطعة السكر إلى ذكرى في أكثر الأماكن سرية.

في هذه اللحظات دخل والدها، حطت الطبق على مائدة وهرعت إليه، قبلها على خديها، أخرج من جيبه سكاكر العيد وناولها، رفعتْ كفه إلى فمها وطبعت قبلة العيد على ظاهر الكف، شدني المشهد ورأيت نفسي في غربة، دنوت إليه في تلك اللحظة الهاربة ،رفعت كفه التي تحمل بصمات أجمل فم، وضعت فمي على ذات المكان وطبعت قبلة من الروح ٠

الحب والكراهية

فجأة ودون تمهيد أو مؤشر وفي غير أوانه اندفع المطر بغزارة عجيبة وكأنه كان حبيساً طوال شتاء، ومع دخول فصل الصيف انفجر المخزون الهائل، وفي هنيهات قليلة غاصت الطرقات واضطرت السيارات للوقوف في أماكنها حيثما وصلت، وتراكض كل من كان في الشارع بحثاً عن مكان للاحتماء من غزارة الأمطار.

الوقت هو منتصف شهر حزيران والناس يرتدون ثياب الصيف الخفيفة وقد بدا السوق كله في حالة استعداد تامة لاستقبال فصل صيف شديد الحرارة. خلت الطرقات إلا من المطر وصوته وهواء شبه عاصف، والناس في تجمعات وحشود تحت أسقف دكاكين وأبنية، لدى توجهي للاحتماء بتوتياء أخذ شكل مظلة مائلة لدكان يبيع الخضار والفاكهة في صناديق خشبية متناسقة ومتماسكة فوق بعضها البعض، اصطدمت نظراتي بنظرات شخص يهرول إلى ذات المحل من الرصيف المقابل ويبدو كأنه يصارع المطر والهواء. وقفت في الممر بين رتلي الصناديق المتقابلين لبعضها على بعد خطوة من دخول الدكان وقد بدا لي رجل يغرق بالحسابات في دفتر كبير ضخم أمامه دون أن يدري ما حدث في الخارج، أو لعله يرى أن عمله في الدفتر أهم من أي شيء آخر في العالم، جاء صوت القادم يسبقه إلي: ألست.... بربك؟

تأملته بإمعان وهو يدنو بخطوات أخيرة إلي: بلى....و أنت ؟

قال وقد مد كف المصافحة إلي: معك حق تنساني، إنها سنوات طويلة... أنا أحمد رمو .
ابتسمنا معاً، تباوسنا بحرارة، وتصافحنا من جديد وقد عادت بي الذاكرة ربع قرن إلى الوراء، إلى صفي الرابع والخامس الابتدائيين كنا درسناهما معاً في شعبة واحدة و مقعد واحد، وعادت إلى ذاكرتي وربما إلى ذاكرته أيضاً تلك العلاقة الحميمة التي ربطت بيننا وربما كانت أولى العلاقات الحميمية، ولأننا كنا نسكن في حيين متباعدين فكان الواصل إلى باب المدرسة ينتظر الآخر إلى أن يأتي، وأذكر أني غبت ذات مرة عن الدوام فانتظر أحمد رمو أمام الباب ثم عاد هو الآخر إلى البيت.
عندما يكبر الإنسان فإنه يحتاج كثيراً إلى علاقات الطفولة، لأنها أكثر العلاقات تلقائية وصدقاً وبراءة، الطفل ليس له أي مصالح في العالم، ليس مسؤولاً عن أي التزامات، وأنه يجهل كل شيء عن العالم، وبهذا الاندفاع البريء يبني علاقاته، وعندما يمتلئ بالعالم يبقى يتوق إلى نقاء وصفاء تلك الطفولة التي لن تعود، إلى تلك الصباحات التي لن تشرق، إن هذا الشخص يحمل معه أشياء مني، أشياء نسيتها عنده ولم أعد أذكرها، وهو أتراه حن إلى تفاصيل تلك الطفولة عندما رآني ولحق بي إلى هذا الركن.
كان المطر شديداً لا يسمح للتفكير بغيره لأنه حالة مؤقتة وطارئة وواحدنا ينتظر ما يمكن أن يفعله للآخر. بعد دقائق غير طويلة تحول المطر العاصف إلى رذاذ خفيف وعند ذاك وبشبه عفوية هرولنا إلى موقف /السربيس/ تحت الرذاذ وانطلقنا إلى بيتي.

- أجل يا أحمد، ها نحن نلتقي وقد كبرنا ربع قرن من الزمن، وأنت ما الذي تفعله الآن..هل تحب الحياة.. هل بنيت علاقات مع نساء جميلات..هل سافرت إلى أماكن أخرى من العالم.. هل قرأت كتباً هامة.. هل تعرفت على العالم أم ما زلت تحمل تلك الطفولة التي اشتقت إليها أكثر من شوقي لأي شيء آخر فيك.

تمتم باحتفالية: أتظن أن من مصلحة الإنسان أن يبقى يراوح في مرحلة واحدة من مراحل عمره؟

لم تكن لدي رغبة عميقة لتبادل حديث جاد مؤرق بقدر رغبتي في الاحتفاء بهذا الزائر النادر من نوعه الذي بدا لي كتحفة أثرية، ورغم إصراره على العودة فقد أقنعته بالبقاء لليلة سهرنا فيها حتى الخامسة صباحاً وفي الظهيرة ذهبنا معاً ودعته في /الكراج/ ولم يصعد السيارة الذاهبة إلى قريته إلا بعد أخذ عهداً بزيارته في الأسبوع القادم واتفقنا عند ذاك أن أزوره يوم الخميس على أن امضي يوماً وأعود يوم الجمعة عصراً.

يوم الخميس وعند الساعة الثانية بعد الظهر انطلقت إلى قرية /الرمضانية/ التي تبعد مسافة أربعين كيلو متراً، نحو الثالثة نزلت في مفرق القرية، فوجئت بأحمد رمو ينتظرني على دراجة نارية ذات عجلتين في /سيباط/ مصنوع من الزل على حافة الطريق العام، ويبدو أنه صنع كموقف لسكان القرية التي تبعد نحو ستة كيلو مترات. قال أحمد لدى مصافحتي: منذ الساعة الواحدة أتوقع أن تنزل من أي سيارة، كان الانتظار ممتعاً، انتظار شخص عزيز، تقصدت الحضور قبل الوقت وضعت اعتباراً بأنك ستصل مبكراً.

انطلقنا معاً على الدراجة التي بدا يقودها بخبرة ومهارة إلى القرية التي بدت تستقر فوق تلة كبيرة ببيوتها القليلة التي لا تتجاوز عشرين بيتاً من أسرة واحدة جميعهم أخوة وأبناء أخوة وأبناء عمومة ٠ فور وصلنا الدار عرفني على الحضور قائلاً: هذا رمضان، أبي- وموسى ،أخي الكبير- وفواز، تزوج منذ شهر- هدلة، أمي- عامرة، أختي- روضة، أختي التي ترفض الزواج وتقول بأنها حصة أمي، بعد ساعة من جلوسنا ونحن نشرب النعنع دخلت امرأة ثلاثينية لم تكن تشبههم، وأحسست أن التعامل معها كان مختلفاً عنه فيما بينهم فور دخولها- مع إحساسي بأن دخولها لم يكن مرغوباً فيه- عند ذاك نهضت مصافحاً إياها، وبدت نظراتها تحمل علامات استفهام عميقة إلي،ولما طالت النظرات الإستفهامية الخفية التي ربما لم يلحظها غيري ، استدرت إلى صديقي بنظرة لتعريفي بها، لكنه تجاهل نظرتي وقال لها: تفضلي اقعدي يا فرحة.. هذا صديق دراستي، ثم أشار لأخته روضة أن تضع بينها وبين الحائط وسادة بيضاء.

اتكأت المرأة على الوسادة، وبدوا يكنون لها احتراماً ومودة من نوع خاص كما لو كانت وديعة أو ضيفة، امرأة طويلة القامة، متوسطة البنية، بشرتها سمراء حلوة، شعرها أصفر اللون وقد وضعته خلف ظهرها، لها عينان زرقاوان كزرقة السماء، تتسم بهدوء غارق كأنها تنسى نفسها في المكان بثوبها البيج الفضفاض، وبين حين وآخر تصوب إلي نظرة إستفهامية خاطفة وتعود وتنظر إلى السقف تحرك شفتيها كأنها تحصي شيئاً. هكذا بدخولها ساد صمت غير مرغوب به، وكأن قنبلة

موقوتة على وشك الانفجار. بعد نصف ساعة من السكون نهضت المرأة ونهض أحمد معها أحسست بأنه كان نهوض إحترام لنهوضها ، ثم نهضت روضةبوقار مشابه ،هزت لي المرأة رأسها مبتسمة بشفتين مغلقتين وخرجتْ، لحقتها روضة بينما عاود أحمد الجلوس جنبي، وكدخولها ترك خروجها أيضاً سؤالاً علق في نظراتي إلى أحمد. عند الغروب توافد إلينا معظم سكان القرية وجميعهم أعمام أحمد، وأولاد أعمامه، أو أولاد أخوانه، جلسنا نتسامر حتى الواحدة ليلاً عندئذ فبقيت مع أحمد لوحدي وبعد قليل أدخلت روضة – التي هي حصة أمها- إلى الغرفة الفراش الضخم وقد حملته على كتفها، عند ذاك قلت لأحمد: ما رأيك أن نتجول في سكون القرية؟
وكانت فرصتي لأختلي فيها بأحمد لنتحدث قليلاً كما كنا، لأتخيله طفلاً ويتخيلني طفلاً ويمارس كل واحد طفولته في الآخر. خرجنا وابتلعتنا العتمة...
مشينا دون أن أدري في أي اتجاه وبعد قليل وقفنا أمام نهر صغير شبه جاف، جلسنا على بقايا حشيش، ناولني سيجارة مشتعلة، أخذتها رغم أنني لست مدخناً، ولكنني رغبت بنفث الدخان في قلب العتمة الساكنة.
قلت له والدخان في فمي: ألم تتزوج يا أحمد؟
عب نفساً وقال: لا.. أبداً.
- : وتلك المرأة..؟
- : سأقول لك.. لا بد أن أقول لأول مرة في حياتي لشخص كل التفاصيل التي أحملها، لم يعرف أحد غير معلومات

شكلية عامة، لكن أنت الآن تدفعني إلى قول التفاصيل برغبة محببة.

قلت: أنت تشوقني إلى معرفة شيء عنها.

- : لقد تسببت في تركي لوظيفتي وجلوسي في البيت، كانت ابنة أخ مدير الشركة التي تعينت فيها بعد تخرجي من الجامعة، ثم نفخ في الهواء كمن ينفخ كرباً: ها أنذا في الخامسة والثلاثين، وهي في الثلاثين، لا هي تتزوج ولا تتركني أتزوج، ولا يعرف أحدنا ماذا يريد بالضبط من الآخر.

قلت متلهفاً: هي في القرية من أجلك أنت؟

أردف وكأنه لم يسمعني: بعد تخرجي بستة شهور تبلغت خبر تعييني في الشركة الضخمة واضطررت مرة أخرى لترك أهلي هذه المرة للعمل بالشهادة التي حصلتها. بدأت في الدوام والتعرف على نوعية الأجهزة التي استلمتها في قسمي، وتوليت أمر إصلاحها إن تعطلت، تعرفت على الموظفين والموظفات الذين يعملون بإشرا في، وقد بدا لي المهندس السابق قاسياً لدرجة أنهم يأذنونني لأمور صغيرة وهامشية لا تستغرق خروجهم عن العمل أكثر من دقيقتين، شراء صندويشة مثلاً وغيرها من أمور طارئة يمكن لها أن تحدث أثناء العمل، ويسمون هذا الإذن فيما بينهم بسخرية /إجازة دقائقية/ لأنهم يعتبرون أن ساعات العمل كلها للعمل ما داموا يقبضون قيمتها كاملة. وعلى هذا الاعتبار يتصرفون وكأن ساعات العمل السبع تصبح ملكاً خاصاً للشركة، لا يحق لهم أن يتصرفوا بأي دقيقة منها إلا بإذن من الشركة، أو من يمثلها. لم يكن من طبيعتي

التدخل بمسائل تافهة، ولم تكن لدي رغبة لملاحقة دقائق ولحظات. كنا سبعة أشخاص، أربعة رجال وثلاث نساء: عبد العظيم حلاق، كان في الخمسين من عمره وجداً لأربعة أحفاد من بناته - جرجس أنطون، كان في الثانية والأربعين وعازباً، محيي الدين رافع، كان في الخامسة والعشرين، متزوج وليس لديه أولاد – وأنا كنت في الثلاثين، وكانت هدى نور الدين في الخامسة والثلاثين ولها ستة أولاد- وحنان شكري في الثانية والعشرين ولها ولد واحد كانت تجلبه معها في الدوام الليلي وكان آنذاك في عامه الثاني – وفرحة المرأة التي رأيتها قبل قليل وكانت ابنة أخ مدير عام الشركة. كان الدوام يبدأ أسبوعياً من السابعة والنصف صباحاً وينتهي في الثانية والنصف بعد الظهر، وأسبوعياً من الثانية عشر والنصف ليلاً وينتهي في السابعة والنصف صباحاً، ربما في بداية الأمر وعن حسن نية تحدث معي العامل عبد العظيم حلاق بصورة مباشرة لأتقدم لخطبة فرحة، ولكنني قلت: لا أفكر بهذا النحو. وصارحته بعدم الرغبة وعدم الميل العاطفي نحوها، علمت فيما بعد أن حنان وهدى نقلتا إليه الفكرة ، مع مرور الأيام صرت محاصراً بالشائعات التي تقول بأنني على وشك خطبة فرحة، وانتشرت الشائعات حتى خارج القسم لتملأ كل أقسام الشركة.

بعضهم يراهن مثلاً على زواجنا بعد شهر واحد، ولم أجد طريقة للرد أفضل من اللامبالاة بما يشيعون حولي وحولها، فلم يصدر مني شيء ولا منها وربما مثلما أتجاهل هذه الأقاويل، تتجاهلها هي الأخرى، هذا ما أقنعت نفسي به، لكنني فوجئت بفرحة ترسل حنان إلي لتقول على لسانها: إن كان يريدني

للزواج فأنا موافقة. هنا اتجهت إلى فرحة وقلت لها: عندما أريد الزواج فإنني لن أتزوج غيرإحدى بنات عمي في القرية. بعد ستة شهور حصلت على إجازة طويلة لمدة عشرة أيام أمضيتها في القرية، وحدث في أثناء الإجازة إلماح بأنني سأتزوج ابنة عمي نزهة التي كنت معجباً بها، وبدأت بعض الترتيبات الأوليةفي القرية لفكرة الارتباط بها ، لدى عودتي شرعت أبحث عن بيت كبير يناسب الزواج والعلاقات الاجتماعية، فهي ستقيم معي لأنني مضطر للعمل في المدينة، ولكن الشائعات صارت أكبر من أن أتجاهلهافي الدائرة ، فمنذ يومين زارني زميل مهندس من إحدى الأقسام الأخرى وطلب أن أتوسط له لدى المدير لنقله إلى فرع الشركة في منطقته ليكون قريباً من بيته، والمدير لم يرد طلبي ووساطتي.. حتى سائق الباص الذي يوصلنا ويعيدنا يتمتم كل مرة: أستاذ بدنا تحلاية، أم أننا لا نستأهلها.

واضطررت أن أعلن أمام الجميع في القسم أنني سأتزوج ابنة عمي، وهي دعوة مفتوحة وجماعية لحضورهم، وأنني سأقدم طلباً لنقلي إلى قسم آخر،أو إلى فرع آخر. لا أدري ما الذي دفع فرحة ذاتها إلى زيارتي في البيت بعد يوم واحد من إعلاني. جاءت في التاسعة صباحاً وكانت اتفقت مع السائق أن يدلها إلى بيتي بعد أن يفرغ من نقل عمال الوردية الصباحية. قالت: أنت أسأت إلى سمعتي، كل العمال أصبحوا على علم بأنك ستتزوجني، كيف تقول لهم بأنك ستتزوج ابنة عمك، ما ذنبي وأنت فضحتني، كيف سينظرون إلي، أم انهم سينظرون نظرات أخرى إلى العلاقة التي ظنوا أنها بيننا. ولم أرد عليها، فأضافت:

لكن لا تحلم أن تتزوج غيري وتهنأ بها. شعرت بثقل كلماتها على سمعي، بيد أن تربيتي في القرية منعتني من نطق عبارة مقلة بالأدب مع امرأة ولم تسمح لي حتى بإلماح لطردها، فتركتها في البيت وخرجت دون احتمال لحظة واحدة معها في بيتي.

في اليوم التالي طلبني المدير إلى مكتبه وقال لي: فرحة قالت لي بأنك تحبها وتخفي رغبتك بالزواج منها لأنك تظن عدم موافقتي..

أعلمك موافقتي إذا أحضرت أهلك إلى بيتها وطلبتها رسمياً متى شئت. لا أدري بالضبط ما الذي منعني من التعليق على كلامه عندما نهضت وأذنته بالخروج. وهنا أخذت الشائعات مساراً جديداً، فقالت لي هدى: أستاذ: فرحة قالت بأنك زرت عمها في مكتبه وطلبتها منه.. مبروك.

وانتشر هذا المفهوم من جديد في معظم أقسام الشركة ولا أدري من الذي يروج هذه الشائعات لتأخذ هذا الاهتمام والتداول والسرعة في الانتشار، ومن ناحيتها بدأت فرحة تتصرف معي بصبيانية وحركات مراهقية مؤسفة كانت تؤكد استحالة ميلي إليها، و تبعد بيننا آلاف الأميال، مثلاً تتوقف عن الشغل ساعتين تثرثر مع العاملتين، تدخن وتشرب الشاي أو تجلس على الكرسي المخصص لي خلف مكتبي، أو عندما أذهب إلى الندوة لتناول صندويشة، تلحقني وتدفع عني ثمنها بحركات علنية مقصودة واستفزازية، ومرة أخرى رأيت أن أصرح أمام الموظفين قائلاً: نحن زملاء وأخوة في هذا القسم، وفرحة هي أختي ولا أنظر إليها أكثر من نظرة الأخ لأخته.

لا أعرف ما الذي أحدثه كلامي لها، فبدت وكأنها خرجت من جلدها، وهذه المرةغدت توجه إلي عبارات التوبيخ وتسيء إلى سلوكي وسمعتي، مثلاً قالت لعبد العظيم بأنني دعوتها إلى بيتي وعندما جاءت حاولت أن أتصرف معها بحركات لاأخلاقية وقد أهديتها أشرطة كاسيت لتتذكرني، وقالت لجرجس بأنني أعرض عليها الزواج ولأنها ترفضني أريد أن أنشر علاقتي بها لتضطر مرغمة على القبول بي٠ وعشرات الأقاويل غير المسؤولية التي لا أريد أن أوجع رأسك بها، لكن ما يهمك أن تعرفه هو أنها غيرت طريقتها في الحياة كلها، حتى في المشي والكلام والثياب ٠عندما تأتي الدوام تبدوكأنها خارجة للتو من محل تزيين وداخلة حفلة عرس، بدخولها يمتلئ القسم بروائح غريبة ،تتداخل بروائح الزيوت والشحوم وأصوات الآلات، تحمل بيدها مجلة صغيرة وتضع في أذنيها سماعة المسجلة وترتدي نظارة سوداء قاتمة وقدحفظت كلمة /مرحبا/ بالفرنسية تلفظها برأس لسانها، لا يمكن لأي عاملة أن تمارس هذه الحركات في العمل لكنها تستغل موقع عمها واثقة بأني أعجز عن منعها أو توجيه عقوبة في العمل لها، أو اتخاذ أي قرار سلبي لتقصيرها في وظيفتها. يوم الأحد قبل يوم عطلة وطنية عندما دخلنا جميعنا إلى القسم تخلفت فرحة لا أدري أين ذهبت وبعد ساعة من العمل جاءني زميل مهندس من قسم الإنتاج وقال لي: ألا رحمة في قلبك يا أخي.. ألا تتذكر الله في تصرفاتك مع هذه المسكينة،منذ ساعة تبكي في مكتبي وتقول بأنك تظلمها، أنا لم أعلم ولم أسمع بشيء من قبل، الآن فقط قالت لي عن قسوتك، ألا تتذكر أن الله بوسعه أن يبعث لك من يقدر أن يظلمك ويحطم

رأسك، أن يبعث لك حيواناً صغيراً يرميك على فراش الألم عشر سنوات.
تقول بأنها تريد أن تنتحر لتتخلص من إساءتك لها.. تقول: طلبني من عمي،وطلبني على لسان العامل عبد العظيم، وأخبركل من يعرفهم بأننا على علاقة محبة، وأنا لا أرغب به، قل له ليتركني بحال سبيلي لقد فضحني وكنت على وشك الخطبة ،حتى ذلك المسكين عندما تسربت إليه الشائعات، ترك خطبتي وخطب غيري. لماذا يشوه سمعتي، لا أريد منه غير أن يكف عن الإساءة إلي ولا يذكرني أمام الناس.. أن ينساني من حياته وتفكيره.
ومن ناحيتة فقد أراد عمها أن يوقفني عند حدودي عندما طلبني مرة أخرى إلى مكتبه بعد ستة أشهر أخرى من المرة الأولى فقال بلهجة قاسية خلت من كل تقدير للمشاعر : يبدو بأنك قروي لا تقدّر احترامنا للمشاعر الإنسانية..ألا أخوات لديك، ألا تخجل من نفسك عندما تنظر في المرآة، كيف تطلب من المسكينة أن تبقى علاقتكما سرية ،وأمام الناس تقول بأنها أختك، نحن لا نعيش في بلاد العشيقات٠٠ لقاءاتمكا في بيتك سكتنا عليها، لكن إلى متى ستدوم هذه المهزلة لا أريد أن أتصرف معك بقسوة تؤثر بمستقبلك، أمامك أن تذهب إلى القرية غداً وتحضر أهلك للخطبة، وأنا سأساعدك بإمكاناتي حتى تصلح خطيئتك بحقها وتضع حداً لهذه المهزلة.. يكفي، عيب.
خرجت من المكتب واتجهت فوراً إلى البيت دون أن أمر بالقسم، كتبت على ورقة ما يلي:/ سيادة المدير سأذهب إلى

قريتي، لكن لا لأحضر أهلي، بل لأستقر هناك هرباً من ابنة أخيك /٠ وضعت الورقة في مظروف وسلمته في صباح اليوم التالي للسائق ليعطيها للمدير المختص عن قرار تركي لوظيفتي على مسئووليتي الشخصية راضياً بأي عواقب تلحقني جراء ذلك. خلال نصف نهار استطعت أن أنهي علاقتي بصاحب البيت، وزعت الأغراض على الجيران، وفي المساء كنت في قريتي أعلمت أهلي بأنني جئت لأستقر نهائياً هنا، وأعمل في فلاحة الأرض وزرع البساتين. أربعة شهور متواصلة أمضيتها براحة في هدوء وصفاء القرية نسيت فيها كل ما يعنيني في المدينة..
نسيت ليلها وهواءها وطرقاتها والشركة. لكن فرحة لم تتركني في هدوئي وهروبي واستطاعت أن تعكر صفائي حتى في القرية عندما فوجئت بها ذات صبيحة تدخل بيتنا بجرأتها المعهودة، كان حضورها بمثابة الصدمة ليس لي ولأهلي فقط، بل لكل أقربائي سكان القرية حيث كنا على وشك إقامة حفلة زفاف نزهة لي.
ومن ناحية أخرى فكيف لفتاة أن تجرؤ على ترك أهلها واللحاق بشاب في قريته دون أن تكون بينهما أي علاقة واضحة وصريحة، لكنها دافعت عن نفسها وقالت بأننا كنا على علاقة خفية، وعندما طال غيابي -وهي تنتظرني أن أحضر أهلي- قررت اللحاق بي لأنها ظنت بأنني هربت ولن أعود وهذا يعرضها لمخاطر أشد من مخاطر اللحاق بي.
تمسكت بالهدوء حتى لا أتخذ قرارات متسرعة ٠في صبيحة يوم التالي دخلت أمي إلى غرفة نومي وعاتبتني: هالمسكينة

تركت أهلها ولحقتك، تقول: سأكون مثل الخاتم في إصبعه، كان يحبني لكنه هجرني ليتزوج هنا ويرميني، أنا متعلقة برائحته ولو كان في آخر الدنيا. لا تكن قاسياً عليها حتى لا يقسو عليك الله.. أنا متعاطفة معها وأحببتها وأريدها زوجة لك ، انس نزهة وأنا سأتصرف بمعرفتي في حسم هذه المسألة ٠ وخرجت أمي دون أن تنتظر ماذا أقول. بخروجها دخلت فرحة التي كانت على ما بدا لي واقفة أمام الباب، وهذه المرة باشرتها بالقول: الزواج أقدس من أن يكون بهذه الطريقة الساذجة.. أنت تعرفين بأنني لا أرغب فيك وهربت حتى من رائحتك.. اللاتفاهم يفصل بين شخصين متزوجين، فكيف تريديه يجمع بين شخصين بعيدين عن بعضهماكل هذا البعد ولا تربطهما أي علاقة، أنت تعرفين هذا من ناحيتي أما أن تكوني أنانية وتفرضين علي رغبتك، فهذا عنف بحقي ولا أرضخ له.. أنت تعرفين بأنني لا أريدك، حتى لو بقيت وحيدة من النساء في العالم فإنني سأهرب منك، افهمي بأنني لن أرضخ للواقع نتيجة طيشك وجنونك، أعتبرك الآن في زيارة ويمكنك أن تعودي بعد نصف دقيقة.
انفجر منها صراخ مكتوم: حتى لو هبط الله لن أعود. خرجت العبارة بشرارية حادة وهي تحدق فيّ بعينين نسريتين مرعبتين ٠أخذ جسدها يرتعد بقوة وعصبية ،طفرت دموع من عينيها، أظن أن نصف وزنها سقط عنها في تلك اللحظات، وأعترف بأنني شعرت بخوف كبير سيطر علي. تركت الغرفة فقط هارباً من شرارات نظراتها تلاحقني عباراتها النارية كالرصاص: أما أن نعيش معاً أو نُدفن معاً.

في هذه الأثناء استاءت ابنة عمي /نزهة/ واعتبرت حضور الفتاة ضربة موجهة إليها خاصة وأنها شبه مخطوبة لي وارتبط اسمها باسمي ، صلتني منها عبارات انفعالية مثل قولها لأختي رضوى: إنه يلعب بحبلين وهذا ليس لمصلحته. بعد أربعة شهور فوجئت بالمدير يقف بسيارته أمام بيتنا ٠٠فرحت لأنه لا بد أن يأخذ ابنة أخيه. قمنا تجاهه بواجب الضيافة، كان يرغب في أن أعود إلى الشركة مع فرحة، وتكفّل بأنه سيتدبر الموضوع وهذه كانت رغبة فرحة، لكنني رفضت مثل رفضي لفرحة وعندها توجه بعبارات تهديدية قاسية لابنة أخيه كي تعود معه، لكنها تصدت له ودافعت عن نفسها بقوة قائلة: أنا الآن زوجته وإلا ما الذي تظنه ببقائي هنا. وعلقت الأنظار بي وبها بما فيها أنظار المدير. بعد برهة أدار ظهره وركب سيارته متجهاً إلى طريق المدينة. خمس سنوات مضت، كل أهلها قاطعوها،فقط أمها تزورها مرتين في السنة.

وقفنا معاً على حافة النهر وأدركنا للتو أن الليل تركنا لخيوط بيضاء أخذت تنتشر في الأفق ٠

قصـة حـب وموت

منذ سنوات أتردد إليه في الأماسي.. التـي أضـجر فيهـا، وعنـدما يرانـي خلف الباب يستقبلني بحفاوة ويصر على تقديم كل مـا فـي بيته من طعام وشراب ويجبرني علي الأكل والشرب، كل مرة أرتب لقضاء ساعة أو ساعتين ، مثلاً في الشتاء أزوره السادسة مساءً وأمكث للثامنة، وفي الصيف أزوره في الثامنة مساءً، ولم يسبق لـي أن زرتـه نهـاراً إلا أيـام الأعيـاد، ولكـن بقـائي غالبـاً يطـول حتـى سـاعة متـأخرة مـن الليل وأحيانـاً فـي فصـل الشـتاء عنـدما لا يتوقـف المطـر يمسك بـي ويصـر عل نـومي فـي بيتـه فأنـام الثالثـة وأستفيق الثامنـة صـباحاً أتجـه مـن بيتـه إلـى عملـي مباشـرة، وإذا لـم أزره لأسبوعين يقوم بهـا وهـو يحـدثني بلهجـة توبيخية.

لا أعرف سبب مضايقته للقيام بزيارتي وكل ما يجيبه: (أنـا فـي الخمسـين وأنـت فـي العشـرين فمـن تقـع عليـه الزيـارة)؟ ويلفـت

انتباهي مضايقته الواضحة عندما أكون في بيته ويُطرق الباب من الخارج وأحياناً يجيب باستياء: أنا نائم يا حمار ٠
لكن على الأغلب لا يزوره أحد، فهو يقيم في هذا البيت لوحده منذ ثلاثين سنة، لاأصدقاء له ولا أحد من أقربائه أو جواره يجرؤ على طرق الباب مهما كانت الدوافع حتى لا يسمع شتيمة، فهو يمكن له أن يشتم كائناً من كان دون أن يعرفه أو يراه ولمجرد أنه طرق الباب، مثل أن يقول-عندما أكون موجوداً- للطارق قبل أن يراه أو يعرف هويته:/ابن الكلب لا تطرق هذا الباب مرة ثانية/ وقد سطر رجل مجهول هذه العبارة على بابه/لا تطرق هذا الباب يا حمار/ وصديقي نفسه لا يعرف من كتب هذه العبارة، لكنه يشعر بأنه كتبها نيابة عنه. يقول لي بأنه منذ ثلاثين سنة لم يزر أحداً من أقربائه مهما كانت المناسبة سلبية أو إيجابية، ولا أجد أي حرج من زياراته رغم نظرات الجوار الذين يجلسون على الأغلب في أمسيات الربيع والصيف أمام أبواب بيوتهم يحتسون الشاي ويبحلقون في المارة بنظرات استفسارية مزعجة، وعلى الأغلب يمعنون النظر إلي وأنا أتوقف مطولاً أنتظر أن يفتح /حسيب/ لي الباب لأنني أجد راحة هائلة لدى ناس غير عاديين وربما أغلب أصدقائي هم من هؤلاء، أفضل قضاء ساعات طويلة برفقتهم وقد لا أستطيع قضاء ربع ساعة فقط مع شخص /عادي/ أو /عام/ لا خصوصية لديه،وهكذا لا أحتمل زياراتهم إلى بيتي فأتحجج بعد دقيقة من جلوسهم بأنني على موعد هام وأصرفهم لأنني حقاً لا أحتمل ضياع ساعات مثلما هم يريدون ضياع وقتهم فقط حتى يموتون، لكن عند حسيب الذي لا يحتمله أحد ساعة واحدة، أجد

راحة مذهلة ربما أكثر من وجودي في منزلي. مرة قلت لحسيب وأنا أخطط لعدم الزواج: ما رأيك بالحياة دون زوجة؟
أجاب وهو يبحلق في: ليس هناك أمتع من الحياة بدون امرأة وأولاد خاصة عندما لا يثق الرجل بقدرته على إعالة أسرة سوف تكبر مع السنوات.. أنا عشت سعيداً بدون مسؤولية لأن المرأة تحطم الظهر، كان علي أن أتحول إلى حمار لأحتمل هذا العبء المروع، ولم تتغير نظرتي حتى الآن لأنني عشت دون مشاكل وأعتقد بأنني سأموت دون مشاكل. الآن أحس بحاجة إلى امرأة تخدمني فقط، لكن المجتمع متخلف لا يمنحني هذا الحق، وأنا أيضاً لا أستطيع أن أغريهن براتب كبير لأن ذلك فوق قدرتي، هذه هي الحقيقة، أتكاسل من جلي صحن أو غسل ثوب أو تنظيف البيت، هذه المسائل البيتية التي غدوت احتقرها تقلقني هذه المرحلة أكثر من غيرها وتكاد تخنقني الآن فأهملها يوماً بعد يوم، لكن القذارة ستأكلني وأنا مجبر على القيام بهذه الأمور التافهة ٠
قلت له: وهذه العزلة كيف تحتملها؟
ضحك وقد ضغط بكفه على كفي قائلاً: هي التي تحتملني، أنا جلبتها بإرادتي لتختطفني أو تعتقلني بالرغم، أنا أرغمت عليها البقاء معي، وهي المسكينة تحتملني لكنني بدون أصدقاء عشت في سلام، المبلغ الذي ورثته عن أبي ودعته في المصرف أعيش بفوائده، منذ عشرين سنة أقبض راتباً شهرياً من المصرف ،لست بحاجة إلى أن أكذب أو يُكذب علي، ولا أريد أن أكون ثرياً ولا أن ينصبوا لي أصناماً لا في حياتي ولا بعد مماتي ،ولا أن ينشروا صوري على أغلفة مجلات أو يجروا

لقاءات إذاعية وتلفزيونية معي، أعيش لوحدي لا أريد شيئاً من العالم كله، أرفض كل شيء حتى الكتب والأغاني والكلام، لا أن أسمع ولا أن أسمع، هل يشدك هذا النمط من الحياة، هل تعرف أن المشاكل كلها تأتي من الخارج ٠
قاطعته: والنجاحات أيضاً تأتي من الخارج
قال: عن أي نجاحات تتحدث
أن تكون ناجحاً هنا عندما تقنع نفسك بأنك ظفرت بكل شيء واسترحت: النوم- الكسل- الاستمتاع بالبقاء بالبيت- السهر- الابتعاد من الآخرين. هذه حرية حقيقية، حرية كبرى لا يحسها أحد غيري في هذه الجمهورية. الليلة أرغب بزيارته والسهر معه هذا الطقس الممثلج، وعدني منذ عشرة أيام بأنه سيكشف لي سراً خطيراً ما زال حتى الآن يحرقه وكان السبب الأول خلف اتخاذ قرار العزلة.
ابتعت خضاراً وفاكهة وبعض حلويات واتجهت إليه في السابعة مساءً، أخرجت حزمة مفاتيحي وطرقت بها الباب ٠٠ تناهى صوته: هل هو أنت؟.
وضعت فمي في شقَي الباب: أجل هو أنا ألن تحفظ طرقاتي؟
سحب شق الباب إلى الداخل بقوة وأخذني بيديه محتفياً كأنني ابنه الضائع منذ ثلاثين سنة، وقادني إلى الداخل ،سحب وسادة أبركني عليها بالقرب من المدفأة، ولما لمحني أرتجف أخذ يدي بكفيه وصار يدفئهما على المدفأة تارة وينفخ عليهما م أخرى: لماذا تختفي.. هل عملك متعب. لماذا لا تأخذ إجازة ونسافر معاً إلى أي بلد آخر لدي نقود لا تلزمني سنصرفها ما رأيك هل توافق.. اجلس بالقرب مني أرجوك.. كدت أخرج للتو إليك، منذ

أربعة أيام وأنا أنتظر مجيئك كل مساء. نظرت في عينيه المغلقتين مستفسراً عن سبب هذا الاهتمام الكبير بي ،لا أرغب في سرد التفاصيل الدقيقة التي يقوم بها، وأنا شارد بهذه الحالة انحدرت دموع من عيني عفوياً.
قلت له: هذا الاهتمام الغامض يؤلمني
قال: لأنني أريد أن أفيك حقك
قلت بدهشة هازاً رأسي: أي حق؟
قال: لأنني أريد أن تأتي، فتأتي، أنت تحقق لي مسرة بحضورك
قلت: ولكنني أخاف بعض اللحظات هذا الاهتمام الزائد
قال: هذا كل شيء، قلت لك ما لدي.
مد يده يزيد السائل إلى المدفأة ثم حمل بطانية ولفها على كتفي قائلاً: حتى لا تبرد قد لا تشعر بأثر البرد لكنك ستعاني منه في المستقبل ٠ثم تعاونا في إعداد العشاء عندئذ ومع مد اللقمة الأولى إلى فمي قلت: أنا مصر الليلة أن تروي لي قصتك السرية التي وعدتني بها المرة السابقة هل تذكر؟
كنت أعرف أن ثمة امرأة في هذه القصة ،
وخطرت لي أحداث مثل أنه كان يخطط للزواج من امرأة، لكنها أعطته جسدهاقبل الزواج فلم يعد يثق بها، أو كان يحب واحدة فتركته، أو تعلق بامرأة فأخبره صديق بأنها على علاقات مشبوهة، كل هذه الاحتمالات خطرت لي فأصررت على معرفة قصته أكثر.
سدد نظرة متأملة إلى شكل المدفأة وقال كأنه يحدثها: حدثت هذه القصة منذ عشرين سنة، السر الوحيد الذي ما زال يرعبني حتى هذه اللحظة وكان علي أن أبقى محافظاً عليه لأسباب

ستعرفها بعد أن أرويها لك ،لا أدري لماذا أجدني مدفوعاً إلى قولها لشخص عزيز مثلك ولاأخفي بأنك تمثل الجزء المضيء للحياة بالنسبة لي وأنني متعلق بك وهذا التعلق الذي يبلغ بي حد الألم يمنعني من مجرد لفظ /لا / وأنت تطلب شيئا ،قد تسألني عن السبب ، أجيبك بأنني لاأعرف ، ولكن أعرف بأنك تحمل أجزاء من كل العلاقات الحميمية التي فاتتني ، تحمل جزءا من الابن ، وجزءا من الأخ ، وجزءا من الصديق الحميم ، وحتى جزءا من الحب المفقود ، ولذلك عندما تطرق بابي يوما ولاتراني ،اذهب إلى المصرف وإلى دائرة العقارات ، ستجد مفاجأة خبأتها لك ربما لأشعر بأنك ستكون أقرب إلي حتى في موتي وستكون علاقتنا أكثر قربا وأنا في ذروة البعد عنك .لاأعرف مالذي أصابني بذكره لعبارة الفراق فقلت : لاتقل هذا ، وكيف تكون قادرا على لفظ عبارات كهذه وأنا لاأتخيل حتى خروجك من هذه المدينة ، لايعجبني الإستمرارفي اتجاه كهذا للسهر ، قل لي القصة التي وعدتني بها ٠ بعد بريهات صمت تمتم بهدوء بالغ : تعرف أن كل رحل على الأرض يريد أن يستقل من خلال الزواج حتى يمارس حريته الشخصية خارج سلطة الأب، أنا رأيت هذه المرأة ودامت علاقتنا خمس سنوات كنا نخطط فيها لحياتنا ونرسم المراحل والبرامج التي سنواجهها، خالدية كانت تسكن في حي شعبي وتزورني في الأعطال الرسمية عندما لم نذهب إلى الدائرة التي كنا نعمل موظفين صغيرين فيها ٠في المرحلة الأخيرة اتفقنا على أن نتزوج لكنها في اليوم التالي غابت عن الدائرة، دام هذا الغياب أسبوعين فرحت أسأل عنها في الحي بحجة أنني سأبلغها قرار

فصلها من الوظيفة، لكنني فوجئت بأنها متزوجة وتسكن في حي آخر مع زوجها٠٠ لم أسأل عنها، وبعد مرور شهرين جاءت إلي في هذا البيت قبل ذهابي إلى الدائرة بربع ساعة وهي تعرض علي أن تعود علاقتنا
أنا كنت أريد مبرراً واحداً لهذا الفعل فلماذا وعدتني بالزواج وتزوجت بعد يومين من رجل آخر.
قلت: عندما تزوجت مات كل ما كان بيننا
قالت: لن ينتهي شيء ما دام قد بدأ
- على أي أساس لن تنتهي علاقتنا وما الفائدة؟
أنا عازب وحضورك في بيتي سيسبب لكلينا إشكالات إن بدأت لن تنتهي بالفعل!!
جلست على الكنبة وقالت: هل صرت تكره حضوري.
- لا شيء لي عندك ولا شيء لك عندي، كنا نتحدث عن حياة كاملة عن مستقبل كامل لإنسانين،لكائنين، قولي لي ما الذي سنقوله، هل هناك غير مضيعة للوقت، عندما لا تأتين سأبحث عن غيرك حتى نرسم المستقبل.

نظرت إلي نظرة تحمل عبق السنوات الخمس الماضية وهي تقول: لكن أنت كلك تعنيني هنا .
- وأنت لا تعنين لي غير الماضي الذي مات ولم يعد يصلح للحاضر.

هنا بكت خالدية وقالت: إذا لأصارحك الآن، أجل عندما كانت علاقتي بك كنت أخونك مع شخص آخر، كان هو ثرياً وكنت بحاجة إلى نقوده، كنت أجلس معه في الشهر مرتين فيعطيني ما يعادل راتبي ثلاث مرات ،كنت أستمتع بهذه النقود وعندما كان

ضميري يؤنبني كنت أغيب عنه لكن بعد شهرين ولأنني بحاجة إلى نقود كنت أعودإليه مرغمة٠ هذه هي الحقيقة التي أخفيتها عنك حتى يكون كل شيء واضحاً. كنت ألجأ إليه من أجل نقوده، لكنني كنت أجيء إليك من أجلك فقط ،من أجل حبنا. بعدما خرجت من هنا آخر مرة ونحن نرتب لاستعدادات الزواج ، شككت بأنني حامل بسبب تأخر دورتي الشهرية، وفي اليوم التالي ذهبت إلى التحاليل بدل الدائرة ليخبرني الطبيب بنبأ الصاعقة الذي حول شكي إلى حقيقة لامفر منها ، فأنا حامل وعلي أن أتصرف ، فكرت بك مليا ولكن كنت واثقة بأنك لم تكن لتساعدني في أمر كهذا ،ولن يكون بوسعك أن تغفر لي خطيئة كهذه ٠اتصلت من هناك مع هذا الشخص وطلبت أن يأتي إلى مخبر التحاليل ليسمع ذلك بنفسه ويتصرف بموقف سريع ،ويبدو أنه كان راغبا في علاقة كهذه لا لأنه يحبني ، بل لأنه معجب بجسدي وقد استطعت تلخيص ذلك من خلال علاقته بي رغم حديثه عن الحب ، لأن الحب الذي عشته معك علمني بأنه أسمى من أن يتعرض على يد المحب لأي شكل من أشكال التلوث ، ويبقى محافظا على صفائه ونقائه مثل طائر حر ، وهذا ما حدث فقد جاء في اليوم التالي وطلبني للزواج لأنني هددته بأنني لن أحتمل العاقبة لوحدي وسأصارح أهلي بالحقيقة عندما يعاقبونني لبكون العقاب لكلينا وكان هو يعرف بأن أهلي سيرهقون دمه ودمي معاً لهذه القضية وفي أقصى سرعة تم الزواج٠

كيف كنت تريدني أن آتي واخبرك بهذه الوقائع، وهل كنت ستحتمل هذه الخيانات حينذاك؟!

- والآن انتهى ذلك على خير لماذا تنفخين في رماد النار التي انطفأت
- أنا أعرف لماذا جئت إليك، وهذا هو رجائي الوحيد حتى لا أخسرك مرة أخرى، هل تصدق بأنني لا أستطيع النوم، أشعر بإثم كبير نحوك، مثلاً كأنني تركتك مجروحاً ٠بعد تفكيرمؤرق وصلت إلى نتيجة تخلصني من هذا العذاب، فمثلاً أنا خنتك مع هذا الرجل وحتى أعيد لك ثأرك، سأخونه معك وفي الوقت الذي سيكون هو فيه زوجي ستكون أنت عشيقي، والفرق شاسع بين الزوج وبين العشيق، هكذا سأتخلص من الألم، هذا ما توصلت إليه.
- هل أنت يا خالدية تقولين هذا الكلام!! ٠ لقد سقطت خالدية عندما تركتني... والآن أي سقوط آخر هذا ،كيف لم أتصور أن حبي الذي كان بحجم العالم سيودي بمن أحب إلى هذا الهلاك وقلت بنظراتي وصوتي: خالدية هل أنا من سيحيلك إلى عاهرة/
- سأملأحياتك.. عندذاك سأمنحك كل حياتي
- أي حياة، أنا لست بحاجة إلى أن تمنحيني حياتك، حياتي تكفيني ، لن أخون حبي الذي كان كبيراً ذات يوم حتى لا أشعر بأنني كنت أحمقاً وغبياً. لن أدفع ثمن خطأ لم أرتكبه، ادفعي أنت لوحدك الثمن، يمكن ان تخونيه مع رجل آخر أو أكثر من رجل، أنا الآن خارج الموضوع لأننا لم نكو متفقين على علاقتك به، أليس هذا صحيحاً قولي هل أقول غير الحقيقة؟
- ولكنك بحاجة إلى امرأة... كل رجل بحاجة إلى امرأة..

- صحيح/امرأة/ أما زوجة أو حبيبة أو عاهرة، وأنت لا تصلحين أن تكوني زوجتي ولا حبيبتي ولا أستطيع أن أعاملك كعاهرة، لأنك كنت حباً كبيراً، سأخدع نفسي.. أنا أعجز عن ذلك لست وصية علي، هذه هي مبادئي كيف سأعيش مجرداً من المبدأ، وفي حال إصرارك سأقدم استقالتي أو أسافر إلى مدينة أخرى أو دولة أخرى أو حتى قارة أخرى.
- أنت تحقد علي وتريد أن أموت حزناً.. ألا تنظر كم هزلت ألا ترى ارتجاف يدي، أقول لك بأنني أصارع الموت ألا تفهم، يجب أن تفعل ذلك ولو مرة واحدة في حياتي لأدافع بها عن نفسي ولنفسي : / لأن حسيب أصبح أيضاً مثل زوجي/ مثلما خنت حسيب مع هذا ها أنا أخونه مع حسيب ٠
- لا لا أريد /أنت كنت حباً كبيراً/ لن أتنازل عن هذا المبدأ حتى لا أكون منافقا ، الآن سأذهب إلى العمل، هذا هو ردي الأخير.

فجأة احتقن وجهها وسقطت على الأرض.. ناديتها، لم تجب، رششت ماء على وجهها ولم تتحرك، تحسست دقات قلبها، وعرفت بأنها فارقت الحياة، صُدمت بهذا الواقع، لم يعد عقلي قادراً على التفكير... مددت يدي إلى علبة الأقراص المنومة، ها هو مستقبلي الذي ضاع يتحول إلى جثة أمام ناظري ، وفجأة وأنا انظر إلى خالدية والأقراص بيدي انتفض الماضي كله على جثة المستقبل الميت: خالدية هل سنموت ذات يوم؟

- لا أصدق، وحتى لو متنا فإننا سنعيش هذا الحب الكبير في الموت، حبنا هو القيمة النظيفة الوحيدة لدينا.

- خالدية حبنا هو أروع لحن في هذا الزمان تعزفه البلابل ويغنيه الربيع
- هل سيموت كل هذا يا حسيب هل تعتقد ذلك كله

أفرغت علبة الأقراص بيدي، كانت خمسة أقراص ابتلعتها دفعة واحدة وقد تركت ورقة كتبت عليها:/ هذا ما فعله بنا الحب/.وراودني إحساس بالانتصار لأنني سألتحق بها، أغمضت عيني وأنا أرى أن ما قالته خالدية كان حلماً، وبعد لحظات سأرى خالدية الحقيقة وسأظفر بها٠ الحياة لم تعد تعنيني لقد تجردتْ من كل شيء عندما خسرتُ خالدية، لقد ماتت خالدية التي كانت كالقلب بين جوانحي، والآن سألتحق بها، أنا واثق بأنني أقوم بعمل صائب.

لا ادري ما حدث بعد ذلك، أو كم من الساعات مضت ولم يسبق لي أن دخلت واقعاً كالذي أنا فيه، ولم يعد الموت يرعبني من ذاك الوقت..لن أقول/لقد مت/، لكن أقول بقناعة/ لقد عشت/ هذا سر أبوح به أمامك بسرية تامة، رأيت عالماً غير هذا عندما دبّت الحياة في كرة أخرى وخطفتني من ذاك العالم المدهش السحري، في اللحظات الأولى لم أرغب في النهوض، حاولت المقاومة بكل الوسائل حتى أوهم نفسي بأنني ما أزال في ذاك العالم السحري ولكنها الحقيقة المروعة والواقع الصدامي، وعادت الحياة هذه تحتل حواسي وتعيد إلى ذاكرتي من جديد ذاك الكم الهائل من ذكرياتي فيها، رأيت رأسي على صدر خالدية وهي ممددة في الغرفة وقد شحب وجهها أكثر، عندئذ عرفت وأيقنت بأنني أمام إنسان ميت، أجل كانت ميتة تماماً، يا له من منظر مروع/خالدية حقاً ميتة/ ولن تعود.

تذكرت من جديد ما حدث عندما دخلت خالدية صباحاً وأنني لم أذهب إلى الوظيفة، عادت التفاصيل ٠٠عندئذ نظرت إلى الساعة وقد سرتُ باتجاه الباب وأنا مثل شخص كان ميتاً وفجأة نهض ورأى نفسه بين المقابر، رائحة الموت كانت طافحة تفوح من خالدية بقوة.. الساعة تشير إلى لثانية، في البدء ظننتها ثانية الظهيرة ولكنني عندما فتحت الباب بحذر وخرجت إلى الحوش، أدركت بأنها ثانية بعد منتصف الليل وأدركت بأنني أمضيت ثمانية عشر ساعة متواصلة في حالة غيبوبة على إثر تناولي الأقراص المنومة الخمس،استنشقت هواء وعدت إلى الغرفة، غطيت خالدية ببطانية. تناولت إبريقاً من العصير لأسد معدتي الخاوية وشردت بالعمل الذي سأقوم به، فكرت ان أبلغ السلطات قبل أي تفكير آخر،

- وماذا سأقول لهم، ماذا سيكون موقف خالدية وأنا أفضحها في موتها، فما الذي يبرر حضور امرأة

متزوجة منذ شهرين في بيت شاب عازب مثلي/ولكن من المؤكد أن زوجها وأهلها قلبوا المدينة وهم يبحثون عن ابنتهم المفقودة/.

خرجت مرة أخرى إلى الشارع مرتبكاً وهذه المرة لفتت دراجة المستأجر الطالب نظري وكان عندذاك يسكن الغرفة التي تحولت الآن إلى مطبخ، ودون أي تخطيط بما سأفعل، قدت الدراجة الهوائية إلى الشارع وعدت إلى الغرفة دون أن أدري ما سأفعله، أمضيت وقتاً لا بأس به في حمل خالدية إلى الشارع وتعديلها على مقعد الدراجة أمامي وقدتها بركبتين تصطكان إلى أن وصلت منتصف الطريق الواصل إلى بيتنا ٠وقفت في ركن

أشد ظلمة، أنزلتها ومددتها على الأرض بجانب أحد البيوت إذ لم تكن حينذاك أرصفة، غطيتها بالبطانية لكنني عندما ركبت الدراجة فكرت ان البطانية ستثير أسئلة، فنزلت وسحبت البطانية تركتها دون غطاء في ذاك البرد الشديد كانت الحرارة من المؤكد تحت الصفر قلت في نفسي: بعد ساعتين على الأغلب سيتفيقون ويبلغون السلطات التي ستتولى مهمة تدبير أمرها.

عدت إلى البيت، أعدت الدراجة إلى موضعها وأغلقت الباب على نفسي... ها هو شبح خالدية من جديد يتمدد في ذات المساحة، رائحة الموت الفظيعة تملأ الغرفة، لقد تركتها في ذلك الصقيع ولم يكن أمامي خيار آخر غير ذلك كم كنت رجلاً قاسياً، لو كانت حية لنظرت إلي نظرة خيبة وأنا أتركها في ذاك الركن مكشوفة، لكن أدافع عن نفسي بأنني ما فعلت ذلك لأجلي، فها أنا أبوح لك بكل شيء، لكن من أجل إنقاذ سمعتها. لقد ماتت ويجب أن يبقى هذا الموت غامضاً إلى درجة الإقناع بأنها ماتت مثل الملايين الذين يقضون بأزمات قلبية في الطرقات.. لم تكن مسمومة ولا يوجد عليها أي خدش، إنه موت طبيعي، لكن منذ صباح الأمس وهذا هو اللغز الذي ما زال يثير فضول الكثيرين، هذا ما استطعت أن أقدمه لخالدية في موتها بين يدي،بعد كل هذه السنوات ما تزال خالدية تحرقني في أحلامي، وكلما نظرت إلى ذاك الركن أراها ممددة هناك وأراني أحملها من جديد.

توقفت غصة في حنجرته ومنعته من إضافة كلمة أخرى، تركته بصمت دون أي تعليق وغادرت لأول مرة في الثانية ليلاً دون أن يلح علي كعادته: / ابق ٠٠ نم هنا / ٠

نسمات هـــواء أســـــود

دخلت وهاد عيادة الطبيب النفسي مستندة إلى ذراع صديقة عمرها دعد ، استقبلتهما الممرضة ببسمة حنونة وهي تقول بلطف : الطبيب بانتظاركما . ثم تقدمتهما ومدت يدها إلى قبضة الباب المغلق ليكشف عن الطبيب قابعاً خلف طاولته يستمع لأغنية / من غير ليه / بصوت محمد عبد الوهاب، أخفض من صوت المسجلة قليلاً ونهض يستقبلهما بترحاب وهو يترك مجلسه ويشاركهما الجلوس على كرسي صغير وضعه جوارهما .

- هذه أغنية جميلة يا دكتور ، قالتها دعد وهي تنظر إليه .

قال الدكتور : كان من المفترض أن يغنيها العندليب ، لكنه رحل وهو يحضر / للبروفات / وقالت وهاد : لكن هدوء صوت عبد الوهاب أضفى عليها هدوءاً وامتلاءً .
قال الطبيب : هؤلاء عمالقة ، ترفض إبداعاتهم أن تتحول إلى شيء من تراث الماضي . طُرق الباب بخفوت سُمع بالكاد وولجت على إثره الممرضة حاملة كاسات مليسة على سفرة صغيرة ، قال الطبيب وكل واحدة تمد يدها لتحمل كأس الشراب الأصفر الساخن : هذه العيادة هي مشروع عمري ، وضعتُ لها نظاماً دقيقاً ، ، نعطل يومي الخميس والجمعة ، ولا نستقبل فيها إلا حالة واحدة ، ومع الخبرة بدأت أنتقي الأوقات والأماكن المناسبة ، أظنها تجربة جديدة في هذه المدينة النائية ، فمثلاً ممكن أن يكون مكان الجلسة مساء على النهر ، أو في ذروة الظهيرة في مطعم شعبي زاحم بالناس ، أو حتى من خلال المسير في شارع ما وهذا كله دون أن يعرف الآخرون بأنها جلسات علاج ، ولكنني أشعر بجدوى هذه البرامج التي أضعها وأطبقها على مرضاي . ما يهم بالدرجة الأولى أن تثق المريضة بجدوى العلاج ، ودوري يكمن في أن أزرع هذه الثقة لديها قبل أي خطوة أخرى ، وإن لم تثق بخبرتي وإمكاناتي فإن القصور يكون بي وليس بها .
رفعت دعد نظرها إلى لوحة معلقة فوق الباب فيها بيت شعري يقول :
ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مراً به الماءالزلالا

عقب الطبيب : هذا البيت لحكيم الشعر العربي / المتنبي / أتخذه عنواناً لمنهج علاجي وأحاول أن أزرعه في نفوس مرضاي قبل البدء في العلاج ، وبعد الانتهاء منه .
ونهض الطبيب وقد فرغ من شرب المليسة قائلاً : هذه هي الجلسة الأولى يا آنسة وهاد ، وهي جلسة تعريفية أكثر منها جلسة علاجية، ستتعرفين على منهاجي وطريقتي في العلاج، وسأعرف الأحداث الأكثر إثارة التي مرت في حياتك، وفي النهاية سأقرر زمان ومكان الجلسة العلاجية الأولى وستقوم الممرضة بإبلاغك ذلك خلال أسبوع ، ستكون علاقاتك بالنسبة للمكالمات والمواعيد والطوارئ معها، لأنها سترافقنا طوال فترة العلاج ، وهي ستكون صديقة وفية لك ، وأمر آخر أريد أن أضيفه لك وهو أن وجود صديقة مخلصة لك كدعد سيعينني كثيراً في مهمتي ، ولذلك عندما اتصلت بي منذ شهرين وبدأنا نمهد للعمل معاً ، طرحتُ عليك فكرة وجود صديقة تروين لها أخفى وأدق أسرارك ، فكانت فرحتي بالغة عندما علمتُ بوجود مثل هذه الصديقة واقترحت أن تصطحبك فتروي هي نفسها النقاط التي أريدها في حياتك الماضية، وهذا جزء هام من عملية العلاج ، عندما تستمعين إلى إنسانة عزيزة تروي هذه التفاصيل بهدف مساعدتك أمام طبيب يرى بأنه يعالج ابنته أكثر مما يعالج مريضة لا يعرفها ولقاء أجر مادي .
راحت وهاد تسترخي على سرير صغير معد للاستلقاء وأغمضت عينيها بينما راح خيالها يستعيد وقائع ما ترويه دعد في مسمع الطبيب. فها هي تعد خطواتها الأولى للتسجيل في السنة الأولى في كلية الحقوق، تلج إلى عالم كانت تراه في

وسائل الإعلام وتقرأ عنه وتحلم أن تعيش وقائع الحياة الجامعية، وتحصل على شهادة كبيرة تكون بمثابة الاعتراف الحكومي والاجتماعي بكفاءتها، تقيم في السكن الجامعي لأنها من مدينة نائية لا جامعة فيها ووضعها الاقتصادي والاجتماعي لا يسمح لها للإقامة في بيت للإيجار في العاصمة، يخفق قلبها بالحب وهي تلتقي زميلها / شاكر / الطالب في السنة الثالثة في نفس الكلية ومن مدينة مجاورة لمدينتها.

لقد ولد الحب الذي تسميه الأكثر نضجاً وعنفاً في حياتها، وهو الحب الذي ما زال حتى الآن يحرقها، لكنه أمام كل هذا الحب كان يمضي وقتاً حتى يتخرج ويتزوج من مدينته، في السنة الأخيرة له في الكلية امتدت علاقتها لتذهب معه إلى شقة زميل وسط المدينة ويتعاملان كزوجين، كانت الأيام تقرب تخرجه ليطلبها للزواج، وقد حل يوم التخرج فاختفى / شاكر / تاركاً لها مظروفاً مغلقاً يحتوي على سطر واحد : / كان وهمك كبيراً وأنت تتخيلين بأنني سأتزوج واحدة داشرة مثلك / .

اسود العالم كله في وجهها، ومضى الأسبوع الأول دون أن تذوق طعاماً، فنقلت إلى المشفى ووضعها يزداد سوءاً ، ثم قررت أن تعود إلى البيت، أمضت سنة كاملة تتحاشى أن تخرج من البيت أو تسمع صوت رجل ، وحتى أصوات أخوانهاوأبيها كانت تمزق أحشاءها ، وتنظر بأنه لا يوجد رجل واحد على سطح الأرض يستحق أن تهبه امرأة حبها الكبير، يبقى الرجل يميل إلى امرأة أخرى حتى يموت، وإن عجز عن الوصول إلى امرأة أخرى بسبب ظروفه الزوجية والمعيشية فإنه يعيش معها في خياله وينظر إلى يوم ينال فيه من كبرياء زوجته المخلصة،

لذلك كانت تشمئز من أصوات الرجال، وعلى الأغلب يثيرون الغثيان في معدتها.لكنها في السنة الثانية من عزلتها في البيت وصلت إلى قرار آخر وهو أن تخرج فتنتقم من هؤلاء الرجال الذين اعتادوا على غدر النساء، وحلمت برجل يأتي فيركع متذللاً، وبعد أن يتعلق بها، تدفعه بقدميها وتقول : أنت سافل .
راقت لها الفكرة ورأت بأنها العلاج الأوحد لإخراجها من هذه الغرفة بعد أن خسرت دراستها ومستقبلها وغدت عالة على أهلها، ورأت أن تبحث عن عمل كخطوة أولى لتنفيذ مخططها، ومن باب إخراجها من عزلتها فإن صديقتها الوحيدة شجعتها على الفكرة وباركتها لها ظانة بأنها ردة فعل وعندما تتعرف برجل آخر وتقترن به سوف تهدأ وتتراجع عن موقفها، لأن الإنسان هو ابن المواقف التي يعيشها وهي التي تحدد له مسارات حياته. ولكن قرارها كان حازماً لا تراجع عنه فبدأت بالمتميزين الذين يعدون في مقدمة الرجال وقد عملت في موقع يوءهلها للالتقاء بهذه النخبة، سكرتيرة في مكتب تجاري ضخم يتردد إليه أثرياء البلد،
-إنه هو، الضحية الأولى، ابن صاحب المكتب البالغ من العمر ثلاثين سنة ولديه زوجة جميلة لا شك أنها تخطط أن تفني عمرها إخلاصاً له وللبيت، عندما مدت يدها تصافحه، ضغط على كفها، فقالت: يبدو أن رجولتك زائدة حبتين .
قال : وأنت تطفحين أنوثة ونعومة. خلال أسبوع كان موعدها معه في بيته، وقد أرسل زوجته إلى أهلها في زيارة، فحضرت مساءً وقد جعلت نفسها كعروسة ليلة الدخلة، قال لها : لقد أخرجتها من هنا لأنك أجمل وأكثر أنوثة منها.

قالت : ولماذا تزوجتها ؟
قال : لأنها من عائلة ثرية ذات نفوذ، إنها واجهة اجتماعية أكثر منها زوجة .
قالت : ألا تعاشرها ؟
افتر ثغره عن بسمة وقال : أشعر في عشرتها بأنني أؤدي واجباً مفروضاً علي، ثم أمسك يدها وبدا أمامها يلهث كثور صغير مدلل، مد يده إلى خدها : أنت ملاك يا وهاد، أنت امرأة أخرى٠ داعب باليد الأخرى شعرها وبدأت خفقات قلبه تزداد وهو يلتصق بها، وفي ذروة ذلك نهضت وقالت : أنت وغد. ثم خرجت .
في اليوم التالي رأت قرار فصلها على مكتبها لأسباب أخلاقية . لم تشعر بأي خسارة، بل أحست الانتصار الأول على الرجل وبدأت تتخيل منظره وهو يستجدي بها ويركع أمام قدميها، ويتوسل إليها، وهي تقف شامخة ترفضه، أجل ترفضه، لم تشعر بضعف، بل كان ذلك يزيدها قوة وشجاعة على المواجهة،وعندها أدركت بأن الإنسان أيضا يبلغ العفة مروراً بسياج الخطيئة. دعت صديقتها إلى حفلة صغيرة في بيتها احتفاء بهذه الهزيمة للرجل الشهير واحتفلتا حتى الصباح وسط القهقهات وعبارات الانتصار ومشاعر البطولة الأنثوية التي عاشتها لأول مرة في حياتها. بدت التجربة مغرية، فخرجت تبحث عن عمل آخر، وتعددت الأعمال، تعدد الضحايا، وهي تزداد زهواً وبطولة وانتقاماً، لكن ذلك لم يدم فقد وقع ما كانت تهرب منه بكل قوتها، وقع كما تقع العاصفة بغتة على الأشجار الشامخة في ذروة الربيع فتوقعها بكامل زهورها وتفتحها، فقد

وقعت عيناها على شاب وسيم في مقتبل العمر يعمل موظفاً بسيطاً في إحدى الدوائر، وكان ذلك عندما زارت إحدى صديقاتها في تلك الدائرة واحتست معها فنجان قهوة، لبثت عيناها في الشاب القابع خلف مكتبه يملي أوراقاً، وتكررت زياراتها حتى تعرفت بالشاب وسألته عن وظيفته ووضعه الاجتماعي وتبادلا أرقام الهاتف. كان هذا الشاب بالنسبة لها مختلفاً عن الرجال، إنه يسحرها بكل شيء، حتى بنبرات صوته في الهاتف. وولدت علاقة حب متبادل بينهما، فكان الشاب شديد الإخلاص حيث راح يقدم طلباً للاقتراض على راتبه حتى يطلبها للزواج رغم أنها تكبره بسبع سنوات، لكنها كانت تخطط لحالة من العشق لأن الرجل ما زال يمثل صورة الغدر والخيانة، فهو سيتزوجها، وبعد سنة أو سنتين سينظر إلى علاقة مع امرأة أخرى، لكنها ستعرف كيف تنتقم من سحرية هذا الكائن الذي أطار النوم من عينيها، ستعرف كيف تنتقم من مشاعر الحب المتفجرة نحوه في أعماقها وهي التي عاهدت نفسها بألا تحب رجلاً مهما بدا لها وفياً، أجل عندما تنام معه لليلة واحدة ستنتحر كل تلك المشاعر، وتتلاشى تلك السحرية كسراب.

في هذا الوقت خطا الشاب خطوات أكثر جدية وصارح أبويه بهذه العلاقة وبرغبته في أن يذهبا فيطلبانها له. عندما يلتقيان في الدائرة، ينظر إليها فيرسم مستقبلاً مشرقاً ويتخيلها أماً لأولاده وزوجة حنونة بجواره يكملان معاً مشوار الحياة، وتنظر إليه على أنها ستنجح من اغتيال سحريته الطاغية عليها وتتحرر من أي شعور بالشوق المتفجر إليه، وعندها ستكمل

مسيرتها في الانتقام من الرجال، إنه يقف عقبة عصية في دربها، وهي ليلة واحدة ستضع حداً لكل هذه المهزلة، بينما صديقتها أيقنت أنها مريضة وجاهدت لإقناعها بأنه الشاب الذي سيشفيها من هذه اللوثة، وعليها ألا تفرط بهذه العلاقة الثمينة التي يبدو بأن السماء شاءت تعويضها، فكانت الإجابة بالسخرية• عرضت عليها صديقتها أن تذهب إلى طبيب للأمراض النفسية قبل أن تغامر بهذه العلاقة العفيفة التي بدا الشاب جاداً بها كل الجدية، وهو الذي ستحقق من خلاله التوازن النفسي الذي افتقدته في رحلة الآثام، فهو ينتمي إلى أسرة محافظة توارثت الكرم والعفة والنبل ولم يسجل قرن فائت من الزمن اسم امرأة منحرفة أو رجل منحرف في سلسة هذه الأسرة الكريمة، سينظر إلى زوجته على أنها قديسة، وسيتربى أولادها ضمن تقاليد هذه الأسرة فينظرون إلى أمهم على أنها تحمل مفتاح الجنة، وهي التي تُدخل من تشاء من أولادها، وتحرم من تشاء منهم، وستنفتح أمامهما علاقات اجتماعية حميمة ذات نكهة أصيلة ما كانت تحلم بها، إن هذا الشاب هو الملاك الذي أرسله الله لينتشلها من بئر الآثام. ولا شك أن الطبيب النفسي سيمهد أمامها الطريق بتدرج لانتقالها إلى مدارج الحياة الجديدة، وستكون نفسها كخاتم في إصبعه يحركه في الاتجاه الذي يريد، كل هذه المحاولات لم تحرك بها ساكناً، بل زادتها عناداً للمضي في نهج الانتقام الفائر في أعماقها، هل ستستلم بهذه السهولة وتسامح الرجل، وتمنحه ثقتها العمياء مرة أخرى، لا شك أنه يحمل شيئا من / شاكر / وشيئا من كل رجل التقته وأهانته وأذلته، إنه ذات الرجل الذي طعنها طعنة الموت

بكل مشاعر الحقد، إن مجرد الخيال بأنها عادت تستسلم لحضن رحل وتمنحه ثقة عمياء يبعث الفزع في أعماقها، فعليها أن تلبث منتبهة ويقظة لألا تُلدغ من جحر مرتين، وعند ذاك هل ستنجو ثانية كما نجت بأعجوبة في المرة الأولى، وأي شيء في هذه المرة ستخسر. كل هذه المشاهد تتراقص في خيالها وتزيدها إصراراً وعناداً حتى نجحت في الاختلاء به في بيت إحدى قريباتها، لم تكن في حالة تسمح لها بالمقدمات والتمهيد لانتزاع حالة الحب المرعبة من أوصالها تجاه هذا الكائن السحري، فغدت تخفف من ثيابها شيئاً فشيئاً حتى فزع الشاب وانتفض واقفاً ينظر إليها بريب، نهضت وهي تردد عبارات الإغراء وتلف ذراعيها حول عنقه، والشاب يحاول إبعادها كما لو كانت تسعى إلى خنقه وبالكاد تخرج من فيه كلمات ثقيلة كالاحتضار :

فيما بعد .. فيما بعد .لكن الإصرار على الانتقام يزداد اشتعالاً في حواسها حتى نزعت آخر قطعة ثياب عن جسمها وبدأت تتوسل إليه وتستجدي به كي يصوب نظرة واحدة إلى ذاك الحريق علّه ينطفئ، وفي ذروة ذلك دفعها بقدمه قائلاً وهو يهم بالخروج : لكن شكراً على أي حال لأنك أنقذتني من بدء حياتي الزوجية مع ساقطة .

تتالت الكلمات على مسمعها كالرصاص، كل تلك الكلمات التي سمعتها عادت تشتعل في سمعها، وبدت أضعف من أن تنهض، أو تمد يدها إلى قطعة ثياب تستر جسدها، فأغمضت عينيها واستبد بها إحساس مرير بأنها تعرضت لحالة من المسخ وتأبى أن تواجه هذا التحول : كان وهمك كبيراً وأنت تتخيلين بأنني

سأتزوج واحدة داشرة مثلك / تتالت العبارة الحرائقية الأولى عشرات المرات تجلدها، كل مشاعر الانتصار السابقة على إذلال الرجال بدت قزمة محتضرة أمام مشاعر التحول إلى كائنة ممسوخة، وبغتة فتحت عينيها وانتفضت تسحب من حقيبتها بطاقتها الشخصية لتتأكد بأنها هي / وهاد/ وأنها في واقع وليس في حلم، فأخذت تستجر خطاها هاربة من سطوة التحول الشبحية نحو بيت صديقتها الوحيدة لتأخذها إلى عيادة طبيب نفسي ٠

غيوم الخطيئـــة

سيدي ، صاحب السعادة ، هاأنذا كجندية مهزومة ألوذ بالورق أفرغ بعضا من صحراء هلوساتي على بياضه ٠ أمضي في تيه كلمات والرغبة تعتصرني فيما لو أحتفظ بهذياني ليكون تسلية في وحشة فراغ لاينتهي ٠ستة شهور من اضطرا ب وكل جزء في يتوسل إليك لترفع قلمك وتخمد اشتعال استقالتي على مكتبك ٠ إنني صحراء تردّ أمطارك ، تأبى أن تمكث تحت غيومك ٠ خمس عشر سنة إخفاق ألهبت حديقة الروح ، خمسة عشر موتا مضت على صبيحة امتدت أصابعي فيها تطرق باب مكتبك لأول جرح ٠ كنتَ إذ ذاك نائبا لصاحب السعادة ، وكنتُ تائهة

أحمل إجازتي المولودة للتو من رحم الجامعة أبحث بها عن فرصة تغنيني عن سؤال لئيم ٠ نظرت إلي بعفو ٠٠بمزيد من عفو ، ثم مددت إلي قصاصة قرأتها مرات لا تحصى : صورة مصدقة عن الشهادة ، إخراج قيد ، سجل عدلي ، شهادة صحية ، طلب توظيف ٠ وعدتني خيرا بعد شهرين حتى ترفع اسمي إلى الوزارة مع موافقة رئيس المجلس وإعلام بتوفر شاغر واعتماد ٠ راجعتك في الموعد وكانت الوظيفة تنتظرني ، لاأخفيك بأنني شعرت بميل عاطفي نحوك ونحو وسامتك ورجولتك ، وتخيلت فيما لو أصبح زوجتك ٠ لمست الاهتمام منك في الشهور الثلاثة الأولى فكنت تصرف لي مكافآت تشجيعية ، أو كنتُ أعتبرها تشجيعية ، ووعدت أن تسلمني رئاسة قسم الموظفات بعد مرور سنة على عملي ٠٠لن تتصور كم أطارني الفرح ودفعني لأتعلم قيادة السيارة وأحصل على إجازة سوق لأن رئيسة القسم تستحق سيارة لمهمة وظيفتها ٠ لم أعرف بأنها ستكون الطعم الذي يهوي بي إلى هاوية بلا قرار ، فبدأت أخرج معك إلى شقتك ، خططت بأنها ستكون بيتنا الزوجي في أقرب وقت ، وربما في ظرف شهرين قادمين حتى إنني أعلمت إحدى صديقاتي المقربات بذلك ، وعلى هذا لم أكن خائفة على نفسي حينما كنا نستلقي معا على السرير ، وأحيانا نمضي عليه يوم العطلة الأسبوعية حتى أتت السنة الموعودة ، وبالفعل كنت شهما وحققت لي هذه الأمنية ، أوفيت بوعدك وسلمتني رئاسة القسم ولم تظلم السيدة السابقة لأنك نقلتها لتستلم رئاسة فرع من فروع المؤسسة ٠ انتظرتك طويلا لتفاتحني بالزواج وهي أعز كلمات تسمعها المرأة من رجل ،

ولكنني تماديت وقلتها لك ، عندها فاجأتني بأنك تريد لعلاقتنا أن تستمر في الخفاء كما هي ٠ استفزني موقفك الغريب وقاطعتك نحو سنة ، لم تتصل بي فلم تسبب لي أي إزعاج ، لكنني عدت من تلقاء نفسي إلى حضنك كمدمنة على تلك الأجواء التي كنت تضعني فيها في بيتك الموفور كل شيء فيه ، وكنت في بيتي محرومة من كل وسائل المتعة والراحة تلك ٠ كنا ست أخوات مع أبوينا نعيش في بيت صغير مؤلف من غرفتين ، ولكن مازادني ميلا إليك وإعجابا بك هو أنك استقبلتني كما لو أنني لم أغب سنة كاملة عنك ٠٠ احتفيت بي كما كنت تحتفي من قبل وحتى الآن أظن بأنك كنت متعلقا وتحبني ولكن لاأعرف أي نوع من التعلق كان ، ولا أي نوع من الحب ٠ كنت تعاملني بشفافية ولطف وأحيانا كنت تنام برأسك على صدري وتقول لي كلمات رقيقة عذبة ٠٠ كنا نتحول إلى طفلين صغيرين على سرير للكبار ٠ بعد سنة ونصف من عملي الجديد كان النبأ المحزن والسعيد عندما جاء قرار تعيينك رئيسا للمجلس وفي ذات الوقت سرت شائعة بين الموظفات بأنك ستتزوج قريبة لك ، لم أصبر على ذلك عندما سألتك من خلال الهاتف من بيتي إلى بيتك في أمسية صيفية ، وأكدت لي بأنك ستتزوج قريبا ، عندها سألتك إن كنت ستقطع علاقتك بي ، ولم تجب ٠ لاأعرف لماذا تشعر المرأة بالغيرة عندما تأتي امرأة أخرى لتأخذ منها رجلا حتى لوكانت تنقذها من خطيئة ٠ كانت شهور قليلة حتى أخذتك تلك المرأة مني ٠٠ حتى جاءت لتصلح علاقة أثيمة ولكنني أنا التي لم أكن راضية ٠وأصارحك بأنني كنت أمر بأسوأ أيام عمري وأنا أتخيلها مستلقية إلى جانبك على

سريرنا ذاك ، كنت أشد الناس حسدا وبغضا لتلك المرأة التي لم أرها ، ربما لأنني كنت أشعر بأن تلك الخصوصيات هي ملكي لوحدي وأي انتهاك لها فهي انتهاك لخصوصياتي ، كنت أشعر بأنك لي ، وعندما تذهب لغيري فإنني لن أجد البديل ، ولكنني استطعت أن أقنع نفسي للبحث عن البديل عندما تأكدت بأنني أصبحت شيئا من الماضي بالنسبة إليك ، وكان الزواج سريعا وانفعاليا أمام أول رجل يدخل حياتي بعد شهرين من زواجك وتخليك عني ، وسعيت لإقناع نفسي بأنني مستقرة عاطفيا ، لكنني فشلت لأن مشاعري كلها كانت عندك وغيرتي كلها تتجه نحوتلك المرأة التي أخذتك مني ٠ اكتشفت فيما بعد بأن زواجي ما كان إلا محاولة لإشعال غيرة مماثلة لديك ، لإيجاد رجل يمكن أن تغار منه علي لأنه أخذ منك امرأة كانت تميل إليك كل الميل ٠ ويبدو أن نيران الماضي لا تنطفئ ، فقد كان اتصالك الذي هزني وزلزل أعماقي ٠٠ اتصالك الذي تطلب فيه أن أزورك في البيت لأن زوجتك ستمضي أسبوعا عند أهلها ٠ بقوة الرغبة جاء الرفض ٠٠ لاأعرف أي نوع من الرفض ، كان رفضا مليئا بالرغبة ٠ أردت أن أكون أنانية خاصة وأنني كنت حاملا بابني الأول ، ولكنك أنت الذي طاردتني هذه المرة ، لم تظفر بشيء حتى انتهى الأسبوع وعادت زوجتك ، فغدوت تتصل بي في المكتب والبيت وتراني مصرة على الرفض حتى أنك انتهيت إلى تهديد بإعادتي إلى موظفة صغيرة ، وهذا ما أخافني فقد كنت متعلقة بالسيارة والمنصب كما كنت تتصور ، كنت أشعر بقوة شخصيتي وأنا أقود السيارة وسط المدينة والرجال يشيرون الي ، أشعر بمتعة لأنه يتولد لدي شعور بأنني

أخذت شيئا كان الرجل يظنه حكرا له ٠ كان هذا الشعورنقطة ضعفي ، وزاد هذا الضعف ضعفا عندما أصدرت أمرا بتوقيف السيارة في المر آب كإجراء أولي لسحبها مني ٠ عندها ولدت لدي رغبة اللعب بهذه الورقة وأعلمك بأنني لم أكن غبية وكنت أعرف بأنه سيضحك علي مهما تفوقت ، ومهما ربحت فان ذاك الربح لن يكون بحجم الخسارة الفادحة ، وكنت أنت المدمن هذه المرة ٠٠ المدمن على أجواء امرأة فقدتها ٠٠ المدمن على رائحة جسد امرأة باتت ترفضك ٠ لعبت بالورقة التي أجيد اللعب بها واشترطت تعييني معاونة لك مع درايتي بأنه موقع حساس لم تشغله امرأة من قبلي ويحتاج إلى موافقات رجال كبار ، لكنك وعدتني به ولا أعرف كيف أتاني الموقع بعد سنة من الاتصالات والسفر والوساطات كنت تقوم بها أمامي وأحيانا من غرفة النوم ٠ عادت تفاصيل العلاقة ٠٠ صرت الأقرب إلى وصرت الأقرب إليك في عملي الجديدالذي أعدته المرأة انتصارا ومكسبا لها ٠ هاهي خمسة عشر سنة مضت على تلك العلاقة الأثيمة التي ازدادت إثما لدرجة أنني لم أعد قادرة على احتمالها ، وغدت نفسي تشمئز حتى من ركوب السيارة ، بت أمقت أن يُنظر إلي في هذا الموقع الذي التصق بي وغدوت أُعرف به وغدا يُعرف بي ٠ ثمة أمر آخر لاأعرف كيف التصق بي وهو هذه الرغبة الجامحة في قمع الآخرين وإزعاجهم ، فعندما تأتيني إضبارة لأحد المراجعين ولايستغرق التوقيع عليها أكثر من دقيقة فإنني أتقصد تركها على المكتب عشرة أيام يكون المراجع فيها متواجدا كل يوم بانتظار الإفراج عن إضبارته ٠ وأضع حظرا على كل موظف وموظفة تريد

الدخول إلى مكتبي ، وقد قمت بنقل البعض إلى مواقع أخرى ٠ حتى المستخدم الذي يُدخل إلي فنجان القهوة فإنه يتهندم ويرتعش عندما يضعها أمامي ٠ وأعرف أن عشرات الشكاوى وصلتك من المراجعين وكلها تتهمني بعقدة التعالي ، لكنك تهملها ولاتخبرني بها٠ أجل ، لقد تحولتُ إلى كتلة من العقد ولا أعرف إلى أين ستنتهي بي ، وأعرف أيضا أن الناس يلعنونني على هذا التعامل الجلف معهم ، ومنهم مَن يستعد لدفع أي مبلغ فقط لرفع هذا الكابوس من هذا الموقع وهم على حق ، لكن لو علموا بأنني لاأجد غير ذلك وسيلة للتخفيف عن قوة شعوري بالإثم لربما كانوا أكثر لينا في نظرتهم إلي ٠ هكذا عندما يكون الإصرار على الإثم فإنه لايخفف من وطأته إلا الإثم ، يغدوا الأمر إدمانا ويتداوى المرء بالداء بدل المداواة بالدواء ٠ لقد خسرت كثيرا ولم أربح شيئا ، كل شيء خرج من يدي ولم أعد قادرة على وضع حد ٠ أدين نفسي في إشعال هذا الحريق الشاسع في جوانحي ، لكنني أدينك شريكا معي في إيقاد الشرارة الأولى ، فإذا كانت خطيئتي أنني بعت نفسي ، فان خطيئتك أنك ابتعت نفسا آثمة ٠ كثيرون يمضون في أوهام كبيرة تتمظهر للعيان بأنها حقائق ، لكنها تلهب أعماق وحواس أصحابها لأنهم يكونون أكثر واقعية بأنهم تحولوا إلى مسوخ وأشباح ٠

محطات من حياة خورشيدة

لم أكن أصدق أن هناك علاقة حميمة تجمع بين أي زوجين في العالم كتلك التي تجمع بين أبوَي ، وليست لدي أمنية مثل أمنيتي أن يكون الطالب يدي للزواج يكن لي المحبة التي يكنها أبي لأمي ، وكثيرا ما رددت بيني وبين نفسي : أمي محظوظة بحب أبي الكبير لها ٠
ولذلك في الليلة الأخيرة من ليالي أمي في الحياة ، لم أحس بأنني خسرت أمي فقط ، بل خسرت معها أبي ٠ مسحت خورشيدة دموعها وأردفت بنبرة مثقلة بالبكاء : خرج الطبيب الجراح من غرفة العمليات وأنبأنا بموتها ٠ فقد أبي السيطرة بنفسه فأطلق صراخا مرعبا في ردهة المشفى وراح يخبط رأسه في جدار الغرفة التي قضت فيها أمي في المشفى الضخم ، وأمام هذا المشهد المرعب ، نسيت موت أمي وانشغلت بما آل إليه حال أبي ، كان ينوح مثل طفل بكبرياء رجل ٠ تغير لونه بشكل مفزع وبعد قليل نقله بعض ممرضين وممرضات إلى غرفة هادئة بعيدة عن الزحام ورائحة الأدوية ٠ كانت الساعة قد شارفت الحادية عشر ليلا عندما أنهينا تجهيزات نقلها إلى بيتنا بواسطة سيارة إسعاف المشفى ، عندذاك صعد أبي الشاحب الذي لم تكن الدموع قد فارقت عينيه ومضت بنا

السيارة ، لاأدري لماذا شعرت بأنها تحمل شخصين ميتين هما أمي وأبي ، هذا الإحساس كان يدمرني والسيارة تمضي بنا إلى البيت ، قبل وصولنا البيت أوقف أبي السيارة بصوت كأنه الأنين بجانب محل لبيع الكحول ، تركنا لدقائق وعاد من المحل حاملا بيده كيسا تصدر منه أصوات ارتطام زجاجات ببعضها ، وكانت هي المرة الأولى التي أرى فيها أبي يحمل كحولا إلى بيتنا وقد بلغتُ الثامنة عشرة من عمري ٠ أنزلنا الجثة ، وعند انصراف السيارة ، قال أبي بأنه سيغلق باب غرفة نومهما على نفسه ، ولايريد أن يعلم أحد بوجوده في البيت ، وقبل أن أرد عليه نفذ ما قاله ٠ بقيت ساهرة أنتحب على أمي المفقودة حتى طلوع الضوء ، ولبث هو الآخر سهرانا يغرق في عالم الشرب ٠ تصرفت بنفسي وبمساعدة الجوار في مراسيم الدفن وأنا أخبر كل من يسألني أن أبي غائب عن البيت ٠ عند العصر كان قد انتهى كل شيء فبدأتُ أستقبل المعزين حتى التاسعة ليلا ، عندذاك فرغ البيت وقد هدني الإرهاق ، ولم يكن بوسعي النوم قبل الاطمئنان على أبي فطرقت عليه الباب وناديته بصوت خرج للتو من حنجرتي ، فأجاب بأنه لن يخرج ، ولكني استطعت إقناعه بتناول شيء من طعام جلبه لي بعض جوارنا ، عندها فقط فتح الباب بالكاد ليتناول الصحون ، وفي أثناء فتحه اندفعت رائحة الكحول المخنوقة إلى الصالون وملأته ، وبسرعة خاطفة تراجع وأغلق الباب على نفسه ٠ بعد أسبوع من عزلته خرج لأول مرة من البيت دون أن يتكلم معي بحرف واحد ، ورأيتها فرصة لأقوم بتنظيف غرفته التي بدت لاتطاق من الفوضى ، ولكنها بقيت الغرفة الغالية التي ولدت فيها والتي

تحمل كل ذكريات أبي وأمي ، إنها الغرفة الأكثر خصوصية بالنسبة إلي لذلك حرصت أن تبقى أنيقة وكأن أمي ماتزال فيها من خلال صورة الزفاف التي تجمعها بأبي والمعلقة على الحائط ٠ قلت بأن أبي خرج وعسى أن يحمل هذا الخروج تغييرا لوضعه النفسي فيعود إلى عمله ، لكنني فوجئت به يعود بعد ساعة بواسطة سيارة ويُدخل إلى الغرفة ثلاثة صناديق ضخمة من زجاجات ، ويقفل الباب على نفسه ٠ لم يكن بوسعي أن أفعل شيئا سوى أن أنتظر٠ مضى شهر كامل دون أن يرى أبي وجه الشارع ووجه أحد ممن يزورونا من أقرباء وجوار ، وصرت أنفق مما كانت أمي ادخرته للطوارئ ، وجر الشهر خلفه تسعة شهور من عزلة قاتلة يعيشها أبي وأعيشها معه لحظة بلحظة ، إنه أبي ، صاحب التضحيات الكبرى معي ومع أمي ، لاأفكر للحظة واحدة أن أتركه ، حتى فكرة الزواج من موسى الذي يحبني وأحبه بدت بعيدة عني ، فهل أتجاهل كل تلك المواقف الكبرى التي أوقفتني على قدمي وأقول لأبي أمام أول محنة : وداعا ٠ لا لن أكون كذلك ، ولا أفكر أن أكون كذلك ٠إنه الواقع الذي قال بأنني لم أعد أملك شيئا أنفقه ، فقد نفذ كل ما كانت أمي ادخرته ، ولكن رأيت أبي يخرج بين أيام وأخرى فيجلب الكحول وبعض طعام للبيت، وعلى الأغلب يجلب المعلبات والزيت والسكر والشاي والرز فيناولها لي ويعود إلى غرفته ٠ كان أبي ينتهي ، وكنت أنتهي ، وكان البيت ينتهي ، وأنا أتخيل منظر أبي قابعا بين الزجاجات المحطمة وأعقاب السجائر وبقايا الطعام ، فهو كلما ينهي زجاجة يحطمها ويقضي كل حاجاته في الغرفة دون أن يسمح

لـي بالـدخول ولا بـالتنظيف ولا حتـى بفـتح النافذة إ لا إذا خـرج ليجلب مايريد مرة أخرى ٠ في هذه الأوضاع المأساوية زارنـي موسى في البيت وكـان علـى وشك أن يتقدم لخطبتـي ، ولكننـي أخبرتـه بـأن أوضـاعي لاتسمح لـي مجـرد التفكيـر بـأمر كهـذا ، فقـال بأنـه يشـاركني حزنـي وكـذلك لايفكـر أن يتخلـى عنـي فـي محنتـي ، وسـوف ينتظـر إلـى أن تنتهـي الأزمـة ٠ وهـو شـاب شـفاف يعمـل معلمـاوكيلا فـي القـرى النائيـة ويسـكن فـي الحـي المجـاور لنـا ، وأرجـو أن أتمكـن مـن التعـارف بينكم فقـد بـات يعرفك جيدا يـاذكرى من حديثي الطويل عنك ٠ أجل قلت لـه بأنني لاأفكر بشيء غير أبي فأنا ابنته الوحيدة التي يمكن لهـا أن تقدم إليه شيئامن العزاء في محنته ، وهو الذي سبق له أن قدم كـل شـيء لـي ، سبق لـه أن قدم لـي حيـاة كاملـة وقد عاهـدني الرجل أن يبقى إلـى جـانبي فـي هذه المحنـة ومستعد أن يمنحنـي راتبه شهريا ، فكبر بعيني وأدركت حينها أنه الرجل الذي تُعقد عليه آمال عمر بأكمله ، إنه الرجل الوفي الذي يكـون أكثـر قربـا وقت الشدة ، فشكرته علـى موقفه وقلت أننـي لست بحاجـة إلـى مـال رغـم أنـه قـال بأنـه سيمنحني علـى سـبيل الاقتـراض حتـى يشـفى والـدي ويسـدد لـه ، فكـررت بـأنني لاأحتـاج ، ولـم أصـل مرحلة كهذه من الحاجة ٠ كان يطـرق علـي البـاب فـي الأسبوع مرتين عندما كان يعود من التعليم من تلك القرى البعيدة لأنـه كان ينـام هنـاك ولايـأتي إلا يـوم الجمعـة ، ولكنـه من أجلـي كـان يأتي يومي الثلاثاء والجمعة حتى يراني ويسأل عن أبـي ٠ كـان يجلس فـي الصـالون نصـف سـاعة يشـرب كـأس شـاي أو فنجـان قهـوة ويعـود ٠ فـي إحـدى الأيـام فوجئـت بشـخص يطـرق بابنـا

ويسأل عن أبي الذي تراكمت عليه ديون الدكان ، فعرفت للتو أن أبي يستقرض مايجلبه ، وقلت للرجل أن أبي غير موجود وفور عودته مساء سأخبره ٠ كان رجلا مهذبا فانصرف وهو يعتذر ٠ بعد ذهابه بنحو ساعة طرقت الباب على أبي : هناك رجل يقول بأنه سمان يسأل عنك و يريدك أن تشرب فنجان قهوة لديه ٠ فتح الباب وتركني أدخل ، وعلى الفور فتحت النافذة وشرعت في التنظيف والتشطيف ٠ أمضيت نحو ساعتين لا أتكلم معه حتى يدعني أكمل التنظيف وتنقية الغرفة لهذا الرجل الذي هوأغلى وأعز وأقرب كائن لدي ٠ حتى في لحظات يريد اليأس أن يقترب فيها مني أردد بيني وبين نفسي : لكنه ذاك الذي حملني على كفيه في الثالثة صباحا عندما أصابني التسمم وأنا في السادسة من عمري ، أخذني ركضا في تلك الليلة الشتائية الممطرة إلى المشفى الذي يبعد عن بيتنا ثلاث كيلو مترات ٠ لكنه الرجل الذي كان يقوم بأعمال مضنية طوال النهار ليجلب لي علبة حليب عندما جف حليب أمي ٠ الرجل الذي طالما مد يده إلى لقمة طيبة ليضعها في فمي ٠ هل يمكن لي أن أتخلى عنه لمجرد محنة طرأت عليه ، وعندها هل يمكن لي أن أخلص لأي شخص آخر لدى مروره بمحنة ٠ بعد تفرغي من ترتيب الغرفة وحواري مع نفسي بركت إلى جواره وطلبت منه أن يعود إلى عمله لينسى لأن الحياة لاتجمد أبدا أمام حدث ودوما تحمل مفاجآت جديدة وسارة خاصة بالنسبة لأولئك الذين فقدوا الأمل ٠ عندئذ صوّب إلي نظرة زلزلت كياني وبذات الوقت أدخلتني إلى حالة غريبة رأيت معها صورة أمي ترتسم في داخلي ، وتذكرت بأنني دون أن أدري اتبعت أسلوب

أمي معه عندما كان يمر في أزمات مالية أو جسدية أو نفسية ، واسترجعت ذاكرتي بنشاط تلك النظرة التي كان دوما ينظرها لأمي في أحوال متأزمة كهذه ، ولا أدري لماذا رأيتني أنهض وأخرج من الغرفة مهرولة وكأنني أهرب من أنامل أشباح أرادت أن تخنقني ، فوقفت أتأمل الشارع وأنا أستغفر الله ٠ عدت إلى غرفتي وللتو تحسست مأساة الرجل الذي يعيش دون امرأة ، وعلى الأخص كأبي الذي عاش مع المرأة ، وراودتني أفكار مخيفة شردت معها بفكرة الزواج لأول مرة بهذه القوة من الشاب الذي مايزال ينتظر شفاء أبي وموافقته ٠ في اليوم التالي بدأ أبي يخرج إلى الصالون وهو مخمور وتلاحقني تلك النظرة التي باتت مصدر إستفزاز بالنسبة لي ولا أعرف كيف أعبر له كي لاينظرها إلي ، لاأعرف أي شيطان تدخل ليوسوس لي بوساوس مفزعة ، وكذلك تبعث على الإشمئزاز ٠ فجأة جاء صوته وهو يناديني باسم أمي ، أجفلني الإسم الذي ناداني به ، لكنه عاد لينادي به ثانية ، فالتفتت إليه مبتسمة بكل ما في القلب من ألم : أنا ابنتك خورشيدة ٠ دنا إلي بذات الطريقة التي كان يدنو بها من أمي ، فسارعت الخطا إلى غرفتي وأقفلت الباب على نفسي وقد أصابتني حالة غريبة من الأنفاس المتقطعة مصطحبة بنوب غثيان كادت تهد معدتي ، من الطرف الآخر كانت طرقاته العنيفة تقع كالبرق على حواسي وهو يردد با نفعال حاد بأنني أحرمه من حقوقه ، وأنه لن يسامحني حتى شعرت بأن صوته انطفأ ولم تعد به نبرة واحدة ، فعطفت عليه وانأ أتحسس وقوعه على الأرض مغميا ، فتحت الباب وحملته بلطف ، وأنا أتذكر مرة أخرى كيف حملني

إلى المشفى وهو يركض بي تحت المطر في الثالثة صباحا ، لقد كان يحمل أثمن شيء لديه ، كان يحمل فلذة كبده ، كما أنني أحمل الآن أثمن كائن لدي ، أحمل من أتى بي إلى هذا العالم ٠ أدخلته إلى غرفته ، وصنعت له المليسة التي كانت تصنعها له أمي لتهدئ أعصابه بها ، تمدد على فراشه وتناول كأس المليسة ، وبعد ذلك صببت له كأسا أخرى لتغسل معدته من آثار الكحول ، وعدني بكلمات هادئة بأنه لن يعود إلى الخمر ما دمت أرعاه وأهتم به وأعامله بلطف ، وأخذ يحدثني بعبارات كان يقولها لأمي ، يتصرف معي تصرفات كان يتصرفها مع أمي ، وأصررت عليه من جديد بأنني لست أمي ، وأنني لو أوهمته بذلك سأخرجه من حالة إلى أسوأ منها ، وهرعت إلى حجرتي ٠ سمعته يحطم زجاجة بالحائط وعادت رائحة الكحول تفوح من حجرته بقوة ٠ لبثت أرتعد في فراشي حتى دخل علي فجرا وهو يدفع الباب الذي لم يكن مقفولا وينادني باسم أمي ، لقد تحول هذا الرجل الوديع إلى كائن كحولي لايحتمل ٠ لم يكن من أحد ليقف إلى جانبي غير عزيزة التي كانت تأتي بشكل متواصل لتطمئن علي ، وقد شحبت المسكينة أكثر مني وكأنها هي التي تعاني الأزمة ، في تلك الأيام عرفت كم هي امرأة نبيلة ، وعرفت ان الإنسان الوفي يبقى وفيا في كل الظروف ٠ قالت لي بأن والدي يحتاج إلى امرأة ، ووجود امرأة لسوف يحل له هذه الأزمة ٠ وقد طلبت مني أمرا لكنني رفضته بقوة ، رفضته وأنا أكاد أرفع يدي لأصفعها ،لكنها رغم عنفي لبثت مصرة على فكرتها ، فذات صباح وقد كنت خارجة إلى الفرن لشراء الخبز وقد تركت الباب مفتوحا لأن عزيزة تأتي في

أوقات مختلفة ، عدت إلى البيت ولفت نظري أن الباب مقفول ، تذكرت بأنني تركت المفاتيح قي القفل من الداخل عندما خرجت ٠ وقبل أن أمد يدي لأطرق الباب سمعت صوتها يهتف به : افتح ، أنا عزيزة صديقة خورشيدة ، ألست بحاجة إلى امرأة ، سأهبك حاجتك ، لدي قدرة لامتاعك ، افتح ، لاتكن عنيدا ٠ وجاء صوته مجيبا عليها : لن أخون زوجتي حتى اليوم الأخير من عمري ، لقد تعاهدنا على ذلك منذ ثلاثين سنة في اليوم الأول لزواجنا ٠قالت وهي ماتزال تطرق بابه بخفوت ورجاء : لكنها الآن ماتت ٠ أجاب باستهزاء : أنت تهلوسين ، التي ماتت هي خورشيدة وهي لاتريد أن تعترف بموت ابنتها الوحيدة ٠

عندئذ طرقت الباب ففتحت عزيزة وقبلتني ، استطعت في تلك اللحظة أن أتحكم بفوران دمي وأظهرت لها بأنني لم أسمع شيئا ، لكنني بذات اللحظة كنت سعيدة لنقاء أبي ولمدى إخلاصه لأمي ورفعت رأسي إلى الأعلى قائلة في سري : يارب ارزقني برجل نقي كهذا ٠ ما يزيدني دهشة أنه جاد في حديثه لدرجة أنني في لحظات من جديته أردد في سري بكل جدية : هل أنا واهمة أم هو ٠٠ هل أنا مريضة أم هو ٠٠ هل يمكن أن خورشيدة ماتت وأنني لاأريد أن أصدق موت ابنتي الوحيدة ٠ ورأيته يخرج في إحدى الصباحات دون أن يقول لي إلى أين ولا أدري لماذا رأيتني أتصرف في البيت كما كانت تتصرف أمي ، أخذت صيغتها إلى الصائغ وبعتها بكل ثقة وكأنني أبيع صيغتي ، ذهبت إلى السمان ، سددت له الديون المتراكمة على أبي وعدت إلى البيت حاملة ماينقص بيتنا من أغراض ،

انتظرته حتى المساء ، لكنه لم يعد ، قلقت عليه ، ولاأعرف متى وكيف أخذتني الغفوة وقد تركت الباب مفتوحا كي يدخل ، أفقت في الصباح دون أن أجده ، تضاعف قلقي عليه ، فأين بات ليلته ، وخرجت أبحث عنه في سوق المدينة ، خرجت وليتني لم أخرج ، ليتني مت قبل أن أرى أبي في ذاك الموقف ، كان ثملا يتقيأ على رصيف وسط المدينة والناس يلتمون حوله ويستهزئون به ، ويبدو عليه أنه أمضى ليلته على ذاك الرصيف ٠ نظرت إليه نظرة كما كانت تنظرها إليه أمي ، لا أدري مالذي فعلته به تلك النظرة التي صوبتها إليه مرغمة وقد خرجت من عيني كما تخرج مني الروح ، لكنها فعلت فعلها فأيقظته من ثمله لينهض وكأن شيئا لم يكن ، كأنه لم يكن ذاك الذي كان قبل لحظات ، ووسط ذهول الحضور ناداني باسم أمي فأمسكت بيده وعدنا إلى البيت ، أعلمته بأنني بعت الصيغة وسددت ديونه ٠ فقال بأن حكمتي دوما تأتي لتنقذه من أزماته ٠ في المساء لم يبق أمامي إلا أن أقرر الخروج ، وكان الخروج هو محاولة أخرى مني لأكون أكثر قربا من أبي ، محاولة جديدة للعناية به والتضحية في سبيله ، خرجت من البيت وكأنني أخرج منه لآخر مرة ، وصراخ أمي يلاحقني بالخروج ٠ تركت بيتي الذي ولدت وترعرعت فيه يوما يوما ٠٠ ساعة ساعة ٠ خرجت بعد منتصف الليل وأبي بأمس الحاجة إلى خروجي هذا ، بأمس الحاجة إلى غيابي عنه رغم لهفتي ورغبتي الشديدة بالبقاء ٠ آلمني أن أتزوج بهذه الطريقة ، ولكنني لم أجد غيرها في ضياعي ، شرحت لنفسي ولهذا الرجل الطيب الذي آلمه أيضا زواجه بهذه الطريقة مني ، وكان

يفكر أن يقيم حفلة عائلية حميمية لي ويقدم أقرباؤه إلي الهدايا ، ونصوّر حفلتنا على شريط فيديو ، ونمضي أسبوعا في مدينة جميلة ، وكذلك كنت أحلم بوضع صورة لزفافي في غرفة نومي كما فعلت أمي ٠ لقد ضحيت بكل شيء في سبيل ألا أخسر أبي وألا يخسرني ، فسمعت نداء أمي التي نادت بالخروج وهي على كل ذاك الغياب مني ٠ ومن للمرأة غير الرجل ٠٠ هاأنذا أهرب من الرجل إلى الرجل ، ولكن علي ألا أهتم بهذه القضايا الموجعة للرأس ٠٠ علي أن أبحث عن مكان أعيش فيه بكرامة وأحافظ على اسم أمي واسم أبي ٠ إن أبي يمر بظروف مرضية شديدة القسوة عليه وعلي ، وما أستطيع أن أقدمه إليه في مرضه بغيابي لهو أكثر أهمية مما أستطيع أن أقدمه إليه بحضوري في محاولتي اليائسة الأخيرة ٠٠ هذا آخر ما لدي لأقدمه لهذا الرجل الذي لاتنتهي أفضاله علي ، لكنه في الليلة السادسة اقتحم بيتي الزوجي بعنف علي واستطاع أن يجرجرني خلفه ويعيدني إليه بالقوة بعد أن فشلت كل محاولات زوجي وأهله بمنعه ٠ أدخلني البيت وحطم رأسي بزجاجة و انهال علي يركلني بيديه وقدميه حتى فقدت الوعي وفقدت القدرة على احتمال الألم ٠كانت كلماته الأخيرة التي سمعتها : أنت لي ، لن يأخذك مخلوق مني ٠ لا أعرف كم كانت الساعة عندما أفقت ، ولكن الليل يخيم ، وحده البرد أيقظني ، وأظن أن الحرارة كانت تحت الصفر ، فقد كنت منطرحة على أرض الصالون كأنني ارتميت من سيارة ، فتحت الباب وخرجت حافية أركض بين الصقيع حتى وصلت بيتي الزوجي ، في ذاك الصقيع والليل خرجنا إلىالقرية التي يعلّم فيها زوجي ٠لم أكن

أعلم أنه يعاني هذه المعاناة حتى لايبقى عاطلا عن العمل ، حتى يكون زوجا عاملا وليس زوجا عاطلا عن العمل ٠ كانت القرية بعيدة عن المدينة وبعيدة عن الطريق العام ، لاماء فيها ولا كهرباء ولا هاتف ولا طريق معبد ٠ وكانت البيوت كلها طينية بما فيها المدرسة والغرفة التي منحوها لنا ٠ اعتدت على الحياة هناك رغم فكري الشارد بأبي ، فكنت أحضر طريقة تعليم موسى للأولاد الذين كانوا نحو أربعين طالبا ابتدائيا من مختلف الصفوف المختلطة ، راق لي العمل وصرت أعينه مع المعلمة التي كانت من سكان القرية ، وكذلك المعلم الذي كان من المدينة ، صرنا كعائلة واحدة ٠في تلك القرية النائية ٠ كانت الحياة هناك غاية في البساطة واستطعت أن أعيشها ثلاثة شهور متواصلة دون رؤية المدينة ، حتى جاء أحد أخوة زوجي ليخبرني أن أبي أصيب بحالة تسمم وأنه راقد في المشفى ٠ خفت أن أفتقده قبل أن أراه مرة أخرى ، وركضت تاركة زوجي يركض خلفي إلى أن وصلنا الطريق العام ، لم أهدأ حتى أوصلتني قدماي غرفة أبي في المشفى عند غروب الشمس ، ويا للصدفة لقد كانت ذات الغرفة التي قضت فيها أمي لحظاتها الأخيرة ٠ رأيت أبي ممددا على ذات السرير ، هرعت إليه وصورة أمي الميتة تقفز إلى وجهه ، شممت رائحة موت من ثيابه ، عندما سمع صوتي فتح عينيه و تمتم باسمي ، وغمرني بنظرات أبوية أعادتني طفلة، لكنها بعد لحظات جمدت في عينين ميتتين ٠

رياح التغيير

لا يعرف حديد ما الذي يعنيه من التدخل في وقائع حياة الآخرين، سواء كان هذا التدخل يسخطهم أو يرضيهم، أحياناً يذهب بشروده متمتماً: وأنت هل تسمح للآخرين أن يتسلوا بالحديث عن تفاصيل حياتك المحرجة والسرية يا حديد ٠
ثم يجيب: ما دام الأمر ليس تشهيرا ولا تجريحاً، ولا يخرج من دائرة التسلية فهم أحرار فيما يتسلون به. ربما هذه الإجابة تعزز ميله الشديد إلى هذا النوع من التسلية فيبررها لغيره لتكون بدورها مبررة له. بعد هذه المقدمة لتناول موضوع / دسم / هذه الليلة، أشعل زنون سيجارة ثم راح يصب ما في الركوة من

قهوة في فنجانين، يمد واحدة لضيفه حديد ويضع الأخرى أمامه ممهداً لتناول ضحيته الجديدة. قال حديد : أسمعت يا صديقي؟ قال زنون دهشاً وهو يسحب الفنجان من شفتيه: أي شيء؟ قال وقد استغرق في ضحك ممهداً لسهرة كاملة من ضحك: الليلة سيتزوج غربي من بشيرة .

بادله صديقه الضحك وهو يقول ويشعل سيجارة : بشيرة ما غيرها ياحديد .

- إي، إي، بشيرة ما غيرها .
- في لحظات راح خيال حديد إلى حجرة الزواج ويتأمل وقائع العلاقة بين نقيضين في شراكة عمر، وفجأة خرجت من فمه عبارة: بربك أليس غريباً أن يكون غربي في غرفة واحدة مع بشيرة . **!؟**
- قهقه صديقه كأنه كان خارجاً من الموضوع، ثم عاد إليه مع السؤال:هذه إحدى غرائب الزواج في منطقتنا.

قال حديد لتسخين موضوع السهرة الساخر: بعد قليل سيملأ غربي الكأس التي فرغت، وستنهض بشيرة وقد ثقل رأسها من الرائحة .

وعلق صديقه لإضفاء روح المرح إلى موضوع السهرة: المسكينة لم تتحدث مع شخص واحد على انفراد، كان والدها يخفيها حتى عن عيون أولاد أخيه ويقول بأنهم ليسوا محرماتها، وفي الصف السادس أخرجها من المدرسة وفرض عليها الحجاب والبقاء في البيت بانتظار النصيب .

أضاف حديد : النكتة عندما تمشي غداً مع غربي في السوق، هي سترتدي الجبة والحجاب، وهو سيكون بالجينز ومحلقاً شعره على طريقة مراهقي أمريكا ٠

- الآن يلتقي الشرق بالغرب في منطقتنا يا صديقي.

بعد مرور ثلاثة أشهر من ذاك اللقاء التقى زنون بصديقه حديد في حي شعبي يوزع اسطوانات الغاز، فوقف حديد بسيارته وراح يحتضن صديقه الذي عاتبه مع القبلات : أين تختفي ياحديد ، هل حلفت ألا تزورني ٠

- قال حديد : يا أخي علقت بشغلة الدوران في الشوارع استأجرت هذه السيارة ومئة جرة غاز ورخصة البيع، أربح جيدا من هذا العمل، وأنت أما زلت تشتري الأحذية المهترئة من القرى وتبيعها بالجملة ٠
- وهل لي غيرها لتأمين هذه النفقات الطائلة ٠
- لكن لك مفاجأة سارة عندي .. إي مفاجأة لن تتوقعها.
- قلها بسرعة
- لا، لا هذا مكان غير مناسب لمفاجأة سارة كهذه، سأزورك الليلة في البيت ونسهر سهرة طويلة احتفاءً بها.

في المساء وقفت سيارة حديد القديمة بمحاذاة باب زنون ثم خرج وهو يحمل أكياساً من الطعام والشراب. استقبله زنون وهو يقول: هل ربحت جائزة في اليانصيب؟

قال: لا ربحت ما هو أهم من الجائزة، ربحت بشيرة ٠

أحس زنون بنشوة في قلبه وهويسمع لفظ، بشيرة : كيف ربحتها؟

- لنجلس، ونعد الطعام والشراب، وأروي لك كل التفاصيل.

لم تبدر كلمة من زنون في أثناء إعداد مائدة السهرة، فلبث الاثنان في صمت وكأنهما يستعدان لحفلة عامرة بالحديث والضحك والتسلية.
لدى الجلوس إلى المائدة ومد الأيدي إلى زهورها قال حديد : هي التي عرضت علي ذلك.
ولم يرد زنون فاسحاً له المجال ليكمل، وعندها أردف: مررت في شارع بيتها أنادي ببيع الغاز، هناك أمام البيت رأيتها واقفة بجانب جرة فارغة، فأوقفت السيارة، أنزلت جرة مليئة، وقذفت الفارغة في البيكاب، عندئذ جاء صوتها كتغريد بلبل إلى سمعي: هل تركّبها لي، لا يوجد أحد في البيت يركبها. قلت للصبي الذي يجلس على الجرات أن ينتبه إلى البضاعة ريثما أركّب الجرة، وحملت الاسطوانة، دخلت المطبخ وهي تتبعني، بدأت في عملية التركيب فتناهى رنين صوتها كتغريد بلبل مرة ثانية إلى مسمعي من الخلف: هل أنت عازب، أم متزوج؟
قذفت إليها جواباً دون أن ألتفت: عازب وحمداً لله.
عادت نبراتها الرنانة من جديد إلى مسمعي: أليس حراماً أنك تعيش دون امرأة، لا شيء يعوض عن دفء الفراش.
هنا فار الدم في عروقي، وأحسست برعشات حصان تتحرك في شراييني، واستدرت أتأمل رشاقة جسدها وقامتها الممشوقة وهي ترتدي ثوباً شفافاً، ولم أملك زمام رغبتي، فمددت كفي إلى كفها، - ولا أدري لماذا انتابتني نوبة غثيان حادة لم أشعر بقوتها من قبل- فراحت تفتح البراد وتصب لي كأساً من عصير برتقال طبيعي ، تناولت العصير الذي خفف نوبة الغثيان الحادة، ثم ضغطت على كفها بنشوة لم أذقها من قبل، امتدت

يدها تدير باب المطبخ الذي انطبق مغلقاً لأن باب الحوش كان مفتوحاً على مصراعيه والصبي الذي معي يجلس على ظهر اسطوانة في البيكاب وكل لحظة يطرق بالمفتاح الكبير على جسد واحدة ويصرخ:
غاز... غاز...
انتهى الأمر في أقصى سرعة ومشاعر الخوف مستبدة بي وكأنني قمت بأخطر عملية اختلاس في العالم..ثم تهرولتْ بي خطواتي وأناملي تزرر أزرار البنطال إلى باب الحوش.
هتفت بشيرة بي من نافذة المطبخ: تعال، خذ قيمة الغاز.
لم ألتفت إليها، ولا أعرف كيف انقذفت إلى مقود البيكاب وخرجت من الحي كله، عندها تنفست الصعداء وأشعلت سيجارة وضيفت أخرى للصبي معاوني .
قال زنون وهو يهنئه على هذا النيل: وكيف تنسى صديقك زنون في مناسبات كهذه يا حديد ، ألا تذكر كم مرة ذكرتك يا خائن، هل أعد لك الأسماء؟
قال حديد وهو يبتسم مطمئِناً إياه: ومن قال بأنني ما افتكرتك، أنا أصلاً لم أقل أسراري لغيرك، ولذلك بعد أن رأيتك، ذهبت إلى شارعها وأعلمتها بأن تأتي يوم غد إلينا في بيتك، لأن الأمر في غاية الصعوبة ببيتها، وكذلك ببيتي .
قال زنون: لكنها تعرفني... كيف وافقتْ.
- يا أخي لم أقل لها اسمك، قلت سنجلس في بيت صديق بمفردنا وهو غائب
- متى ستأتي؟

- في التاسعة من صباح الغد، عندما يذهب غربي إلى عمله في النوفوتيه، اتفقنا أن أنتظرها عند السبع بحرات وأجلبها بسيارتي.

في الثانية والنصف ليلاً خرج حديد من سهرة صديقه زنون مترنحاً وراح يقود سيارته المملوءة باسطوانات الغاز فبدت هي الأخرى تمضي في صندوق السيارة يمنة ويسرة. لبث زنون ينظر إلى قيادته المائلة إلى أن استدارت السيارة وتوارت بميلانها عن نظره.

ترك كل شيء على ما هو عليه واستلقى على إسفنجة لم يفق إلى الثامنة، عند ذلك تذكر أن حديد سيأتي بعد ساعة، فعاد وجلس على ذات المائدة يتناول وجبة الإفطار في أجواء مخنوقة برائحة الشراب والدخان وفوضى الصحون،بعد تناوله لشيء من الطعام والشراب عاد وغفا وهو يجلس على المائدة ولم يستيقظ إلا على خبطات حديد المتسارعة على الباب، انتفض مادا يده فدخل حديد ممسكاً بيد بشيرة وكأنه يمسك بصيد ثمين . حدقت بشيرة في زنون دهشة، ثم التفتت إلى حديد وكأنه غدر بها، فسارع في القول: زنون يعرف كل شيء.

فقال زنون وقد استبد به حرج كبير: أنا آسف، لا أستطيع أن أضيفكما شيئاً، البراد مملوء، سأخرج حالاً.

لكن حديد صاح به وهو يخرج: عد يا زنون بعد ساعة واحدة.

خرج زنون بثياب النوم، جال في الشوارع معتبراً نفسه في رياضة مشي بعد وجبة عشاء ثقيلة، وعاد بعد ساعة حاملاً بعض الدراق والموز.

تناولوا جميعاً الفاكهة، فهمس زنون لحديد : أرجوك، لا تزعجها من أجلي ، ربما تخجل، أو لا ترغب بي .
فرفع حديد صوته قائلا : إذا كنت تريدين الجلوس معه، سأخرج الآن، وإن لم ترغبي فقوة العالم كلها لا تستطيع إرغامه عليك.
بعد لحظات من الصمت تمتمت إليه بصوت خفيض: اذهب أنت إلى عملك،سأذهب بعد قليل من هنا إلى غربي ، ومن هناك أعود إلى البيت.
فابتسم حديد وهو يبارك لصديقه ويهنئه مقدماً وخرج دون أن يقول كلمة واحدة.
بينما كان زنون وحديد يتمشيان في أحد طرقات السوق بعد نحو شهرين من ذلك وتكرار الموقف أربع مرات ، صادفا غربي في طريقهما، فتوقفوا جميعاً، تصافحوا وتباوسوا وهنآه على الزواج وهما يعاتباه على عدم دعوتهما لحفلة العرس. لم يقل غربي بأنه كان محرجاً من ذلك بسبب وضعهما الاجتماعي المتدني، أو بسبب عملهما السوقي وجهلهما وفقرهما، بل قال بأنه نسي دعوة الكثير من الأصدقاء الذين كانوا في حي واحد منذ الطفولة وتفرقوا فيما بعد، ولكنهما أصرا على عزيمته بهذه المناسبة على الغداء يوم غد ولم يجد بداً من ذلك أمام إلحاحهما الشديد٠ في ظهيرة اليوم التالي حضر إلى بيت زنون الذي تولى تكاليف وجبة الغداء الثرية.
قعد غربي مع صديقَي أيام الطفولة، وأثنى على تعدد ألوان الطعام، وجودة الشراب

ثم باشر في الأكل قائلاً: لقد اعتذرت من زوجتي، وأعلمتها بأنني معزوم عند أصدقائي، الرجل يستطيع أن يغير المرأة مهما كانت تربيتها متخلفة، وهذا يأتي على تجربتي، فأنتم تعرفونني، وتعرفون تربية والدها المتخلفة لأولاده.. لكن شيئاً فشيئاً استطعت أن أحرر زوجتي من الجهل والانغلاق والتخلف. في البدء أقنعتها بخلع الحجاب، واشتريت لها ثياباً حديثة، جعلتها تمضي أوقاتاً في النوفوتيه لترى الناس وتنفتح على نمط الحياة الحديث، ترى النساء ماذا يرتدين وكيف يتخلصن من الأزياء المتخلفة ليرتدين أزياء تناسب إيقاع العصر، فاستجابت وبدأت تنتقي الثياب من النوفوتيه وترتديها، ثم بدأت تشاركني الجلوس إلى الكأ س واستقبال العائلات المنفتحة. لا أخفي عليكم أن المسكينة في البداية واجهت بعض المعوقات من قبل أهلها وأقربائها لكنها في النهاية فرضت عليهم نمط حياتها الجديد الذي يرتأ يه زوجها .
وهذا دليل بأنني نجحت في أن أغير في سنة ما زرعوه في عشرين سنة. وواصل غربي حديثه، وزنون ، وحديد ينصتان إليه باهتمام ويتأملا ن حركاته وهو يتحدث ويتناول ما يطيب له من طعام وشراب ٠

شـوارع الحــي القديم

ها هو الرجل يعود منتفخاً كطاووس
هـا هـو يمضــي بسـيارته الأنيقـة فـي طرقـات طالمـا مشــى فيهـا حافياً، يتأمل أزقة وقف فيها جائعاً ينظر بشهية إلى ما يحمله الناس من أكياس طعام يمضون به إلى أولادهم.
سيارته الأنيقة تلفت أنظار سكان الحي البائس، تقف بمحاذاة بيته القديم الذي غاب عنه عشرين سنة. الناس يهرولون صوب السيارة، يلتمون حولها، بانتظار الزعيم الذي سينزل، لكنه يتريث. أحدهم يمد كفه إلى الممسك ويفتح الباب حانياً رأسه دون أن يعرف من يكون بداخلها.
الأنظار كلها علقت في الباب تنتظر شخصية القادم. بعد نحو ربع ساعة من فتح الباب امتدت قدم بتمهل.. وبعد قليل لحقتها أختها.. ثم بعد دقائق أخرى انتصب جسد عليهما ما زال يحافظ على بعض سحنته رغم سنوات الاغتراب. وفجأة تعالى هتاف

جماعي موحد بفرح عارم: دحام أفندي.. حمداً لله على سلامتك دحام أفندي.
في رفة جفن رأى نفسه مكرهاً في أحضانهم تنهال عليه أسئلة وقبلات وكلمات فرح وابتهاج، وكذلك دموع وضحكات، فمَنْ لم يتمكن من تقبيل وجهه وقع على كتفيه، ومن لم يتمكن من تقبيل كتفيه وقع على كفيه، ومن لم يتمكن من تقبيل كفيه سقط على قدميه.
اكتظ الشارع بالأجساد والأصوات حتى خرج أخوة الرجل الستة من البيت وتدخلوا ببعض عنف ليسحبوا شقيقهم من موج الأجساد.
برك الرجل يلتقط أنفاسه وقد تناول كأساً من الماء فتذكر للتو بأنه نسي زوجته وأولاده الثلاثة في السيارة المقفولة عندئذ خرج منه هتاف شديد : يا خليل الحرمةو الأولاد في السيارة.
انتفض خليل شقيقه الأكبر مهرولاً إلى الخارج لحقته أخته العانس روشة تجر خلفها أذيال خمسين سنة من عمرها: يا جماعة والله لن ننساكم.. لكن اصبروا حتى نعرف ما في البئر.
انتشر هذا الكلام الذي أطلقه خليل في أسماع أهل الحي فتفرقوا فرادى وجماعات وابتعدوا عن السيارة. عند المساء اعتذر خليل عن استقبال أحد حتى الوجهاء والأقرباء تلبية لرغبة دحام أفندي الذي قرر أن ينام بعد صلاة العشاء.
أخلوا له غرفة وفرشوا فيها فرش النوم لكن دحام أفندي قال بأنه لا يقدر النوم إلا على تخت وأنه يخاف النوم على الأرض ،هذا الخوف ذكرهم بطفولته عندما لدغه عقرب وهو نائم في أرض الدار. تبادلوا نظرات الحيرة فيما بينهم فمن أين يأتون له

بالسرير وأي سرير ،إنه يريد سريراً مريحاً كذاك الذي ينام عليه في بلاد الغربة، لكن دحام أفندي بدد ملامح الحيرة من وجوه أخوته وهو يناول خليل مبلغاً من المال: بسيطة يا خليل اشتر لنا أجود تخت زان من السوق. تناول خليل حزمة النقود واختفى٠ بعد ساعة كان السرير ممدداً في الغرفة الطينية وكان دحام أفندي مستلقياً عليه وقد علقت عيناه في أعمدة السقف متأملاً:

"عشرون سنة ولت على الحادثة سيئة الذكر، يبدو الناس رأوا من الخير نسيانها، فإن أراد مارد يذكرهم ،قالوا له بحكمة: نحن أولاد اليوم، العفو أقرب إلى التقوى، دحام البارحة رحمه الله، هذا دحام جديد، جاء كي يمحو ما فعله دحام الماضي، فلنعطه فرصة".

تقلّب من ظهره إلى الجهة اليسرى من السرير الجديد في البيت الذي طالما حن للعودة إليه ولو للحظة خاطفة بعد منتصف ليل، وفي غمرة الاحتفاء الروحي بلحظات العودة الثرية غاب في إغفاءة خدرة إلى بدايات نوم رحيب.

شريط الماضي يعود مشهداً مشهداً إلى ذاكرة الأهالي، تبدو التفاصيل طازجة وقعت للتو، دحامهم الذي لن ينسوه، بطل أشهر واقعة في الحارة. في العقد الثاني يبيع الدخان المهرب لسيارات عابرة عند مفترق طرقات. ذات يوم وفي منتصف ليلة حزيرانية مازالوا يقظين فيها يقاومون حرارة لا تطاق على أسطحة منازلهم تتسرب سيارتا شرطة إلى الحارة تحت أضواء مصابيح أعمدة الشارع الساطعة.. تقفان بمحاذاة بيت جارهم الذي يبيع أحد أولاده دخاناً مهرّباً عند مفترق طرقات.

يفتح الرب باب بيته إثر طرقات شديدة مزعجة متلاحقة.
يستفسر دهشاً، يلج العناصر قائلين بأنهم ينفذون مهمة شرطية موكلة إليهم. يمسح الأسطحة التي بدت مغروزة بقامات آدمية بنظرة استغرابية ويلحق بالقوم ذوي قبعات شرطية تذكر الناظر إليها بجدران السجون ،
يقلّبون كل ما يقع بأيديهم، يفتشون البيت ذراعاً ذراعاً، يأتون الأسطحة وبيت الخلاء وقن الدجاج دون أن يعثروا للمارد على رائحة، يأخذوا تصريحاً خطياً من الرجل ذو الشعر الأبيض الخالص الذي أتى به إلى هذا العالم بالإبلاغ الفوري لدى معرفة أي معلومة عن الضال تحت طائلة مسؤولية قانونية وأمنية.
بعد مرور يومين على تلك الزيارة الليلية قام المخفر بلصق بيان على شوارع الحي يهيب بالأهالي ضرورة تقديم معلومات عنه في حال معرفة مكانه أو رؤيته أو سماع أي شيء يفيد للوصول إليه ،وينذرهم من أي تستر على خبر قد يؤدي إلى مكانه. تم لصق صورة واضحة له في أعلى البيان وتحتها معلومات مفصلة عنه مثل مواليده وعمره الثلاثي وعمله ومسكنه والجرم الذي ارتكبه ،ووضعت الشرطة حراسة مشددة على بيته وبيوت أقربائه لمدة شهر لكن دون أن تعرف له أي أثر. لقد توارى مخلفاً العار لأهله وأخوته الذين يمشون منكسي الرؤوس في الحي لما لحقهم من عار نتيجة فعل دحام المنافي للحشمة حتى أن شقيقه الأكبر خليل صرح أكثر من مرة بأنه لن يتردد من قتله إذا رآه ليشفي فيه غليله ،وأما إذا قام أحد أقرباء الصبي بذلك فإنه سيعفو عنه ولن يقيم أي ادعاء عليه. كل هذه التفاصيل

لا يعلمها دحام لأنه كان يعيش خارج البلاد دون أن يعرف أحد من أقربائه أي خبر عنه طوال كل هذه السنوات وهو أيضاً لم يعرف ما حدث خلال هذه السنوات ولا يعرف أن أباه قد مات قهراً بجلطة قلبية بعد تعليق البيان في الشوارع بثلاثة أيام وأن أمه قضت هي الأخرى بعد عدة أيام معدودة بماس كهربائي يُشاع بأنها كانت عملية انتحارية لعدم تحملها الصدمة.
في اليوم التالي دعا معظم سكان هذا الحي إلى وليمة كبيرة وأعطى للفقراء بعض العون ورأى أهل الصبي الذي كان سبب هروبه يتسامحون معه خاصة وأن ذاك الصبي قد أصبح الآن في الثلاثين من عمره، ووعده دحام أفندي بأن يتحمل كافة نفقات زواجه وأن يهديه دكاناً وسط المدينة ليحسّن به وضعه المعاشي فكان اللين والسماح والتفاهم ما بين الجميع وما بين دحام أفندي وقد نفذ كل وعوده معهم واشترى لنفسه بيتاً في حي جيد من المدينة وأعان أخوته وأقرباءه وبعض مساكين حيه القديم. دحام أفندي هو سيد الحي مع أنه لا يقيم فيه.. لكنه كل مساء يأتي إلى بيته القديم الذي ولد فيه ويجمع حوله السكان وقد أعطى للبعض أدواراً ، فعمه الذي هو بعمر والده عليه أن يقدم لقدميه الحذاء عندما ينهض ، وأخوه الأكبر عليه أن يفتح باب السيارة للدخول والخروج ،وشاب قوي البنية ضخم الجثة يلازمه دوماً.. وفي جلساته عندما يرى أحد لجلوس يسهو عنه قليلاً فلديه هواية أن يقذفه بالنعل، وأما من يتحدث في حضرته فيتلقى شتيمة ٠كل هؤلاء يقبضون رواتب شهرية وهدايا. أما الذي ينقذف بالنعل ويصمت، فتلحقه ورقة نقدية وكذلك الذي يتلقى شتيمة ويبتلعها. عند مروره في الشارع لا بد أن ينهض

كل جالس ،منذ أيام بينما كان دحام أفندي يمر بسيارته في أحد شوارع الحي رأى رجلاً عجوزا ً لم ينهض من جلوسه ،فوقفت السيارة ،نزل منها دحام أفندي وراح يصفع الرجل المسن في وجهه ، لكنه في صبيحة اليوم التالي أرسل إليه خروفاً كهدية. فقال في سره : ما لي أزداد قوة ونفوذاً ،وما لهم يزدادون ضعفاً وخضوعاً!!

وواجه نفسه بالسؤال بأن عليه أن يتعامل معهم على هذه القاعدة وهو مادام سيعطيهم سيقدمون له ما يشاء:

"ولكن ماذا ستأخذ منهم يا دحام؟" ٠

- لا تنس أن الذي تغاضى النظر مرة سيتغاضى مرات أخرى.

تذكر بأنه رأى صبية بالغة الحسن تقدم له القهوة في بيت الممرض نايف خان وهو أحد جواره القدامى، فركب سيارته متجهاً إلى بيته مساءً. استقبله الممرض نايف خان ودفع ابنته لتقدم له الضيافة مع أنها عندما تخرج إلى الشارع تتحجب كي لا يراها أحد ويمنع عليها رؤية الرجال.. ولكن كما قالت لها أمها: دحام أفندي استثناء يا بنتي.بعد زيارتين لم يتردد دحام أفندي من طلب يدها للزواج قائلاً: يا نايف خان الله يبعدنا عن الحرام.. الحلال فيما أحله الله وأنا رجل مقتدر وأرغب أن أناسبكم. قال: والله يا دحام أفندي هذا يشرفني لكن الرأي رأيها. ثم اختفى قليلاً وعاد يقول: البنت تقول بأنك بعمر والدها وترفض .

صُدم دحام أفندي بهذا الرفض، لكنه بذات الوقت ازداد إصراراً فصار يرسل إليها هدايا ثمينة عن طريق نساء من الحي ويطلب منهن إقناعها .. في أمسية طلبها في الهاتف وعندما سمعت

صوته أقفلت السماعة مماجعله أكثر إصراراً في مطلبه وتحولت"هند" إلى قضية أثيرة لديه: أنا دحام أفندي زعيم الحارة وولي نعمتها تتجرأ ابنة ممرض على رفضي.
تكاثرت زياراته إلى بيت نايف خان، في كل زيارة يحمل إليه هدية ثمينة، وأحياناً يأخذ معه خروفاً محشياً مع صندوق فاكهة قائلاً وهو يبتسم: الليلة سأتعشى عندكم يا نايف.
فيجيب: بيتك يا سيدي وتاج راسي.
لكن هند لبثت في موقفها، وامتنعت حتى عن تقديم الشاي إليه، وأمام إلحاحه يضطر الأب لإحضارها بشيء من العنف كي تبرك مع أمها جوار دحام أفندي.
في إحدى الأيام أوقفته"سلومة" وهي امرأة متوسطة العمر معروفة بأنها تتوسط بين الشباب والبنات للزواج. جلست بجواره في السيارة وقالت: يا دحام أفندي اعلم بأنك لن تتزوج "هند" إلا عن طريق"سلومة". نصف شباب وبنات الحارة والحارات المجاورة تزوجوا عن طريقي. قال دحام بأنه لا يريد غير أن تقنعها للتحدث إليه ولو مرة واحدة بالهاتف. فطلبت أن ينزلها بجانب بيت نايف خان، وينتظر مكالمة"هند" له مساءً.
عاد دحام إلى البيت عصراً ولم يخرج بانتظار أن يأتيه صوتها الساحر. أغلق باب غرفته على نفسه وطلب من زوجته ألا تستقبل أحداً، وألاتدخل أو تُدخل عليه الأولاد لأنه ينتظر محادثة هامة.
لبث ينتظر إلى أن بلغت الساعة الثانية عشر ليلاً وبدأ يفقد الأمل ويدرك أن سلومة فشلت في إقناعها، بيد أن الجرس الذي رُن أزاح عنه مشاعر اليأس وأنعش عروقه المنتظرة، فمد يده بفرح

غامر إلى السماعة ورفعها إلى أذنه ليتناهى إلى سمعه صوتها العذب: مساء الخير يا دحام، سلومة أوصلت سلامك إلي، لكن يا دحام أنا أحب شاباً وهو يحبني واتفقنا على الزواج ٠
قال دحام باستياء: وماذا تنتظران؟
قالت: ليس لديه مال ليتقدم إلى خطبتي.
قال: لكن أنا لدي مال أتقدم به لخطبتك
قالت: لكنه حبي الأوحد.. كيف سأنساه.
قال: عندما نتزوج، ستكتشفين بأن ذلك كان هراءً
قالت: لا أظن أن الحب هراء
قال: إنه حب في الهواء، بلا أمل، ستنتظرين طويلاً إلى أن يموت ذاك الحب، عندها تكونين وردة ذابلة لا يلتفت إليها أحد.
فوافقت أن تقابله غداً في بيتها.
بدا مستعداً لأي مقابل مادي ومعنوي، ينتعش بلفظ عبارات التفاوض على بضاعة رغب بقوة امتلاكها، في غمرة أجواء التحاور يقفز أجداده إلى الذاكرة يتمتم في سريرته: بربي كانوا أكثر صدقاً ووضوحاً أمام رؤية حسناء يبتغون شرائها. كانوا يشترونها من سيدها، ها هو الأب يؤدي دور السيادة، يكون أكثر عنداً في التفاوض.
يضع كفه في كفها: قولي باركني الله لك. تجيب بلهجة تجارية والكف في الكف: ألا ترى بأن الثمن بخس.
ترتفع المفاوضات حد شراء البيت وسيارة باسمها، وتسديد ما تراكم من ديون على أبيها.
تقول هازة كفه: كن شجاعاً أكثر إن أردت بضاعة نظيفة.
يقول هازاً كفها: قبلنا نصيب أخيك حتى يبارك البيع.

تطرح الجزء الأخير عليه قائلة: يا دحام أفندي، أعلم بأنك أسخى، سأكون في حضنك.
يجيب: قبلنا ذلك باسمك في المصرف.
تفض كفها من كفه بقوة: الآن باركني الله لك. عاد إلى بيته غانماً ولم ينس أن يأخذ معه طبقاً من حلويات باهظة الثمن، طيبة المذاق. ومرة أخرى قفز أجداده إلى فضاء الذاكرة، الأمر كله كان يفرغ لحظة الشراء والمباركة، يحتاج الآن لترتيبات واستعدادات نقل ملكيتها إليه، ولا يعجبه أن يتنافق على روحه، يدرك أنه ابتاع متاعاً أكثر مما تأهل لزواج هذه الصراحة الذاتية أدخلته إلى طقس خاص من الاحتفال الذاتي بهذا الظفر فأراد أن يحتفي بهذه المناسبة على طريقته ويبذخ على جميع السكان غنيهم وفقرهم فقال لجمع من هؤلاء: سأشبعكم يا أهل حارتي لحماً طرياً مما تشتهون وفاكهة مما تتخيرون، أسمعكم طرباً، أمنحكم فرصة لترقصوا.
بدت زينة هائلة تأخذ مكانها على جدران الحارة، حضر عمال البلدية مع سيارات النظافة لم يتركوا عقباً على الأرض، ارتدت الحارة حلة زاهية فأشرقت كعروس، وكان ختام الاستعدادات في أمسية الحفلة أن حضرت سيارة تبخ الجدران عطراً. ثلاثة أيام كرنفالية بأيامها ولياليها حتى قال الناس بأنهم اكتفوا طعاماً وشراباً وطرباً ورقصاً وحبوراً، أمسك دحام أفندي على إثرها يد عروسته منطلقاً لشهر عسل.
في معزل عن كل هذا راحت الزوجة الأولى تضمر له شراً في صدرها انفجر ليلة السفر وهي تقول: أنا بنيتك يا خائن، وأنا سأهدمك.

صباحية اليوم الأول نطت العروسة بفتوة من عش ليلة دخلتها، فتقافز فرح صبياني إلى قلب دحام أفندي محركاً في عروقه طاقة شبابية بدت تستيقظ من نوم مع استيقاظه. تقافزت ألسنة نيران خمدت نيران قلب امرأة منتقمة لم يعجبها أن تمسي زوجة سابقة لرجل يستبدلها بفتاة، تقافز ثلاثة أولاد إلى بيت عروسة لم تعد إليه بعد من شهر عسلها، حطموا الأبواب وأووا هرباً من ألسنة نيران أكلت بيتهم بما فيه.

عاد دحام أفندي متأبطاً ذراع عروسته إلى واقع لم يكن يتمناه حتى في حلم، تبدت له حبال سوداء، بدت تكبله وتلقيه في غيابات جب. فالوثائق التي تحمي ممتلكاته في الخارج والداخل تمسي رماداً، والزوجة المطعونة في كرامتها تمارس كل أشكال الانتقام في بلاد تخبرها، وتسحب العروسة ذراعها قائلة: إن لم تتصرف بإخراج هؤلاء الذين يحملون رائحة امرأة أمقتها، سأطردهم من بيتي بقانون.

راح يفكر نحو بيته المحروق لشراء مسكن صغير يأويهم، في أثناء هذا الخاطر جاء هاتف من المخفر يقول أن مجهولاً اعتدى على ابنه ذو السنوات العشر وقد وهو الآن في المشفى.

فور عودته البائسة من المشفى قالت: لم أعد قادرة على إخفاء مشاعر كراهيتي لك، لم أعد أطيق حتى الإحساس بأني زوجتك، إن بقيت لديك ذرة كرامة، طلقني بها. قد فشلت كل محاولات نسيان ذاك الحبيب الذي أخذتني من حبه، فشلت أن أستبدلك به، فأنت الآن زوجي، وهو ما يزال حبيبي، والفرق شاسع ما بين الزوج والحبيب. أنت تعيش مع شبح جسدي، لكنه يعيش في أعماق مملكة فكري وعاطفتي، أنام في حضنك وقلبي

مستيقظ على حبه، تنازلت له عن الشقة والسيارة ومبلغ المال بدافع هذا الحب، كنت قد قبلتها بدافع الكراهية، لقد فشلت أن أبيعك حباً تبني به بيتاً جديداً"لأن المحبة قوية كالموت" أنا جنة ليس لك فيها ماء. ستة أيام أمضاها في غرفة مغلقة يرفض أن يرى كائناً، وفي صبيحة يومه السابع خرج عارياً وسط ذهول الزوجة والأولاد، ألقى عليها الطلاق ثلاثاً، ثم خرج بكامل عريه إلى الشارع، لحقه بعض أطفال وهو يهرول صوب حيه القديم، تجمهر أهل الحي حول مظهره العاري وراح يخبط على باب الدار الذي بدا موصداً على كهف.

الأنـــــف

عند الساعة السابعة والنصف من صبيحة يوم السبت كان جابر خلف الموظف لدى مديرية الأوقات الضائعة يهم بالخروج مع دراجته الهوائية ماسكا بيد مقودها وبالأخرى مديرا الباب خلفه ،هجم عليه ثلاثة أخوة من البيت المجاور له ، فأدرك جابر أنهم كانوا في انتظار خروجه ، لم يدعوا له فرصة لقول كلمة ، ولا لوضع الدراجة على وقافتها ، وفي غمضة عين وأخرى انهالت عليه لكمات كرصاص مجهول فارتمى مستسلما للأقدام التي تدوس عليه وتركله بعدوانية ٠ مع مواصلة اللكمات التي تسدد على انحاء جسده دون تمييز ، أبرز أحدهم / مشرطا / كذاك الذي لدى الحلاقين وصوبه نحو أنف جابر ، لكن جابر ومع الرعب الذي اعتراه من تصويب المشرط نحو أنفه انفجر بصراخ غريب يشبه عواء ذئب ، كان الصراخ غريبا على الأسماع فشعر الأخوة بفزع وتراجعوا عن جابر المرمي على الأرض والذي يصدر منه صوت خافت غريب حتى اعتقد الأخوة بأنه تحول من إنسان إلى مخلوق آخر ، أو أن مخلوقا آخر كان يسكنه فمات جابر من إثر اللكمات وظهر فيه ذاك المخلوق الذي يصدر صوتا لايشبه صوت إنسان ، عندها لاحظ الأخوة أن الجيران خرجو على صراخه

الأول الذي أفزعهم فلم يتردد أحد الأخوة من إظهار سكين وتهديد الذي يقترب من الجيران لانقاذ جابر منهم ، وقالوا بصوت جماعي بأن لهم ثأرا عند هذا المارد ولن يتركوه قبل أن يثأروا منه ٠ بعد نحو نصف ساعة انطفأ أنين جابر الخافت الغريب فاقتربوا منه مرة أخرى وهم يحذرون الجوار من الاقتراب ، دنا حامل المشرط وقبض على أنف جابر باصبعيه في غفلة وقد تمكن من الأنف ، وبذات السرعة ضرب المشرط نحو الأنف لكن جابرا استطاع أن يبدي حركة غاية في السرعة برأسه في آخر هنيهة مما أدى إلى بتر إبهام حامل المشرط ،وصار الإبهام يتقافز على الأرض والدم ينز منه بغزارة كأنه لن ينقطع ، قذف شتيمة في وجه جابر ، ثم بصق عليه وراح يهرول نحو البيت ، لكنه قبل أن يدخل الباب عاد إلى إصبه المبتور فحمله في جيبه واتجه جاريا نحو البيت ٠

تناول أحد الأخوين المشرط من الأرض ودنا من أنف جابر قائلا بحشرجة : تفعلها بنا إن تركناك بأنف هذا اليوم يا رزيل ، مثلك يجب أن يمشي بدون أنف في الشوارع ٠ ووقع عليه الأخ الثاني بالضرب وقد امتلأ غضبا بعد بتر إصبع أخيه وراح يمسك بشعره قائلا : سوف تحلم ياجابر أنك كنت ذات يوم بأنف ٠ وقبض على أنفه بشراسة وجابر مستسلم من أثر اللكمات التي انهالت عليه ، لكنه يحرك رأسه في كل الاتجاهات ويبصق ويشتم ويستغيث ، بينما الجوار تجمعوا على شكل تظاهرة يتفرجون عن بعد دون أن يجسر أحد منهم الاقتراب لانقاذ الرجل ٠ دس الأخ إصبعيه في خياشيم جابر وكأنه يريد أن يخلع الأنف بيده وأشار لأخيه أن يسدد الضربة بشكل جيد إلى الأنف ٠ طمأنه حامل المشرط بثقة وعلامات فوران الدم تتصاعد إلى وجهه المحتقن ، وبسرعة

خاطفة أوقع الضربة إلى الهدف ، ومرة أخرى بدا جابر أكثر حذرا فانتفض هذه المرة بكامل جسده وكأنه بركان صغير انفجر وأبعد القابع عليه جانبا ،فأصاب المشرط جانبا من أنفه وترك فيه خدشا ٠ عادا إليه بهزيمة وإصرار أشد وعلى الفور قبض ذات الشخص على الأنف وقد برك على بطن جابر الممدد ، دس إصبعيه في ثقبَي الأنف ، قبض الثاني بشعره مثبتا الرأس وسدد الضربة ليقع الأنف هذه المرة في يد أخيه ٠ أحسا بأنهما نفذا المهمة بصعوبة ، تنفسا الصعداء وهما يصوبان نظرات النشوة إلى وجه جابر الذي خلا من الأنف ٠ أخذا الأنف معهما وتواريا عن الأنظار ٠ في اليوم التالي أبلغت الشرطة مديرية المشفى بأن الموقوفين رموا الأنف المبتور في إحدى المجاري ويتعذر البحث عنه ، فاضطر الطبيب الجراح الذي تولى إجراء العملية أن يبتر قطعة لحم من مؤخرة جابر ويلحمها موضع أنفه ، بينما جابر تنازل عن ادعائه الشخصي عليهم قائلا : لاشيء في العالم بمقدوره أن يعيد إلي أنفي ٠ أمضى شهرا في البيت يتردد من الخروج بلا أنف ، وبين يوم وآخر يجري اتصالات بالعمل يقول بأن وضعه النفسي لايسمح له بالخروج من البيت ٠ يمضي جابر معظم وقته أمام المرآة يمعن التحديق في القطعة الملحومة فترتسم مؤخرته في وجهه ، يزداد استفزازا وغليانا ، تتدخل أمه وتبعده عن المرآة قائلة : هذا نصيبك ياجابر ، احمد الله أنهم لم يبتروا عضوا أكثر خطورة ، كان مستقبلك كله سيضيع في أوقات أخرى يفكر بخطيبته التي خطبها قبل الحادث بشهر على أن يتزوج في ظرف شهرين قادمين عندما يحصل على قرض ولكن المفاجأة وقعت عليه بعد مرور شهر ونصف على الحادث عندما أرسلت خطيبته الخاتم والهدايا إليه مع

أخيها ليبلغه كلام أخته: لقد انخدعنا بك ياجابر ، لكن حقيقتك بانت في وجهك ٠٠ لاأريد أن أرى وجهك الأسود بعد الآن ، العودة من منتصف طريق الهلاك أفضل من الاستمرار ٠أراد جابر في تلك اللحظة الفورانية أن ينقض عليه ويقرض أنفه بأسنانه ليصبح زميلا له ، بيد أن الكلمات هي التي كانت سباقة : لايشرفني الاقتران بهكذا امرأة تقرر قرارا مصيريا كهذا مستندة على كلمات سمعتها من الناس ٠ خرج الأخ وعاد جابر إلى المرآة يحدث نفسه بخفوت : يبدو أن الخسارة لم تكن في الأنف فقط ياصاحبي ، هاهو الأنف جر معه الخطيبة التي كنت تمضي معها أجمل الأوقات بعد منتصف الليل على الهاتف ، وهل ستنتظر من تفكر بالزواج من رجل بلا أنف ، وهل ثمة امرأة بلاأنف في هذا العالم كله لتقبل الاقتران بك ٠ لوكان البتر في أي عضو آخر ٠٠ أذنك مثلا ، يدك ، قدمك ، حتى لوفُقأت عين ٠ ثم أخذ صوته الغريب يعلو قليلا ، هذا الصوت الذي يخيف السامع ، حتى أن أمه عندما تسمعه فإنها تخرج من البيت وتقول للجوار بأن كائنا آخر يسكن غبنها ولا يظهر إلا في أوقات الشدة : عندما تخرج ياجابر فان الناس سوف يحدقون بك ويتهامسون ، يتغامزون على سبب قطع أنفك ، إنه سبب وحيد لاغير يميز كل الذين بُترت آنافهم ٠ كيف ستجلس في مجتمع ياجابر وتحكي عن العفة كما كنت تتحدث طوال عمرك ٠ بعد مرور شهرين أحس بأن البقاء في البيت يكتم نفسه ، وأنه لولم يخرج سيجن ، فقرر الخروج على استحياء ، ارتدى بدلته الوحيدة ذات السنوات السبع من العمر التي اشتراها عندما قبض أول راتب من مديرية الأوقات الضائعة ، عقد ربطة العنق الحمراء الرفيعة وأمسك بمقود دراجته الهوائية ، فتح الباب لأول مرة منذ شهرين

فجفل وهو يتذكر آخر خروج بذات الطريقة عندما هجم عليه جواره الثلاثة ، مد رأسه قبل أن يدفع الدراجة ، تأمل الشارع والرعب يسري في عروقه ، هل ينتظرون ليقوموا باعتداء آخر عليك ياجابر ؟ إنهم مجانين ، كل شيء وارد في هذا العالم ياجابر ٠ لم يثن هذا الرعب عزيمة الإصرار على الخروج ، فدفع مقود الدراجة إلى الشارع بينما أمه توصيه أن يكون حذرا ٠ قاد الدراجة بيديه عدة خطوات دون أن يركبها فنادته أمه أن الإطار الخلفي مفروغ من الهواء ٠ عاد بها إلى الباب ، أوقفها على الوقافة ومد يده إلى المنفاخ المعلق في موضعه على الدراجة الزرقاء اللون ، وضع رأس المنفاخ في موضع الهواء في الإطار وغدا جابر يعلو ويهبط ويلهث وبين لحظة وأخرى يمد يده إلى الإطار ليتفحص حجم الهواء الداخل ، وبذات اللحظة تتسرب منه نظرة سفلية خاطفة إلى حيث بيت هؤلاء الثلاثة المقابل ، بينما أمه واقفه جواره ٠ توقف جابر عن دفع الهواء وقد أدرك كفاية الإطار عن حاجته ، ولمح إذذاك خروج الجوار وهم ينظرون إليه يضع لاصقا طبيا على أنفه ويركب الدراجة بدل أن يقودها بيديه ، فلم يسبق لأحد أن رأى جابرا يركب الدراجة ، إنه دوما يقودها بيديه ، يمشي معها كما يمشي مع صديق طريق وهو يدرك بأنه اعتاد هذا الصديق ولايستطيع المشي بدونه حتى لو ذهب لمشوار قصير في زيارة خاصة٠ لقد أصبحت جزءا منه وهو لايخرجها ليركبها ، بل لتمشي معه ، فعندما يقول أي شخص من الجوار : رأيت جابر ، سيضيف : يمشي مع دراجته الزرقاء ٠ وحتى في حالات السرعة فهو يدفعها بعجالة ويهرول معها ٠ عندما مضى جابر راكبا الدراجة وهي ظاهرة غريبة استوقفت الجيران إضافة لمظهر

الشاش الطبي على أنفه ، تناهى صوت مسموع من أحد أطفال الحي : جابر ٠٠ جابر يسوق البسكليت بابا ٠ فأصبح كل مَنْ في الطريق يصوب إليه نظرات مطولة وهو يمر غير مسلم لأول مرة منذ ثلاثين سنة عندما سكن هذا الحي ٠ قال البعض : لاتؤاخذوه ياجماعة ، عذره في وجهه ٠ وعلّق البعض : قليل الحياء والاحترام ، لقد وصل لحقه ٠ وقال رجل : أقبّل اليد التي قطعت أنفه ٠ واصل جابر طريقه ولم يقف إلا أمام رصيف الدائرة . نزل من دراجته وقادها نحو باب الدائرة لكن الحارس منعه من إدخالها ، فقال : أنا جابر خلف ٠٠ موظف هنا ٠ فقال الحارس : كنت جابر خلف الموظف هنا ٠

أوقف جابر الدراجة على الرصيف ، وهم بالخروج ، رأى شخصا يجلس على مكتبه ، وفي دقائق قليلة اكتظ المكتب بالموظفين والموظفات يتفرجون على جابر مقطوع الأنف ٠ فاتجه إلى مكتب المدير مغتاظا يقول بأن الموظفين يسخرون منه ، لكن المدير قال بأنه فصل من عمله نتيجة غيابه لمدة شهرين دون عذر ، وكذلك لأسباب تمس الأخلاق ، لأن الموظف عليه أن يتمتع بأخلاق حميدة ٠

خُرج جابر من دائرته مطرودا لايعرف أين يتجه ، وقد بدا أمامه الرجوع إلى البيت كالرجوع إلى هاوية ٠ عندئذ وقف على الرصيف جوار دراجته وقد مد يده إلى مقودها يسترد وقائع يوم العطلة المشؤوم عندما تفاجأ بجارته خولة تقع عليه في غرفة نومه صباحا ٠ انتفض من الفراش قائلا : ما أتى بك هنا ياخولة ؟! ٠ قالت وهي تقف في المدخل : لماذا تهرب مني ياجابر ، ألستُ جميلة ٠

قال : اخرجي ، هذا لايجوز ، أنا رجل خاطب ٠ تأتين لزيارة أمي أهلا وسهلا ، أما أن تلعبي بذيلك معي فلا أسمح لك دخول هذا البيت بعد اليوم ٠
قالت : بل أدخل هذا البيت من أجل أن أراك وأسمع صوتك ياجابر ، أمك هي حجة لأدخل ٠
قال : اخرجـي يابنة الحلال ، لاأريد أن تدخلي بيتي بعد اليوم ٠
قالت مستاءة : لن أخرج وافعل ماشئت ٠
وكضربة السوط وقعت كفه على خدها ٠ قالت : ستدفع ثمن صفعتك غاليا ياجابر ، ستندم طوال عمرك على هذا الصفعة التي صفعتها لخولة ، أنا خولة ياجابر، أخت ثلاثة شباب ٠ انتفض من خياله وهو يرى خولة أمامه على الرصيف المقابل للدائرة ،قال في نفسه : هل راقبتني عندما خرجت من البيت ، وما الذي تريده مني ٠ فاشارت خولة إليه ليلحقها ، قاد جابر دراجته ومضى وهي تسير بخطوات متسارعة ، سار جابر خلفها نحو ساعة إلى أن دخلت حيا شعبيا ووقفت أمام أحد البيوت ، تقدم جابر إليها ، ولكنه عندذاك اكتشف بأنها ليست خولة ٠

مفاتيـــح الظـــــلام

عاد السيد عبد الوهاب إلى الفندق في الساعة الواحدة ليلاً وهو يتصور جلوس الرجل العجوز خلف الطاولة وعلى يساره لوحة المفاتيح، ذلك الرجل الذي استقبله صباحاً بابتسامته الرقيقة عندما سأله عن غرفة شاغرة، طرق على المائدة، ولم يجبه أحد.

يبدو أنه نائم، قال السيد عبد الوهاب، ومد كفه إلى لوحة المفاتيح، وسحب المفتاح رقم / ٢ / وهو يتجه صوب غرفته، تناهى إلى سمعه صوت سقوط صحن زجاجي على البلاط. أيقظ الصوت شهيته لاحتساء فنجان قهوة، تخيل جلوسه في الغرفة يحتسي القهوة، وألحت الرغبة وقادته إلى مصدر الصوت، مد يده ودفع باباً صغيراً خلف لوحة المفاتيح، فانفرج

الباب، وأدى إلى غرفة صغيرة بمساحة مترين مربعين، دخلها ورأى شخصاً يوليه ظهره ويحرك طعاماً على سخان كهربائي تنحنح السيد عبد الوهاب، فاستدار الشخص بحركة بطيئة ولما رآه ارتعد وعلاه ارتباك، فبادره السيد عبد الوهاب: آسف الآن فقط أنهيت مشواري، فلم يرد عليه الشخص الذي أدار ظهره كرة ثانية وعاد إلى تحريك طعامه وبعد قليل حمل صحناً من الكوسا المقلية بالبيض ومر بجانبه خارجاً، رأى نفسه وحيداً في الغرفة فدنا إلى البراد، ورفع قنينة من الماء البارد إلى فمه عندئذ تناهى وقع خطوات، فاستدار والقنينة في فمه رأى ذات الشخص يدنو من البراد ويسحب ربطة الخبز من الدرج الأسفل الذي يشبه صندوقاً، فوضع القنينة مكانها قبل إغلاق الباب، قال له الشخص هذه المرة وهو يهم بالخروج: تفضل كل معي.
أجابه وهو أيضاً يهم بالخروج: لا شكراً، عندما تفرغ، أرجوك اجلب لي فنجان قهوة إلى الغرفة رقم / ٢ / .
أجاب الشخص وقد وقف في المدخل: أنا نزيل مثلك، يبدو ان العامل المناوب نام في إحدى الغرف الفارغة، نظر السيد عبد الوهاب إلى الخبز في يده، أردف قائلاً: أنا مستأجر غرفة شهرية هنا، هل نزلت اليوم؟؟

- أجل اليوم هو الأول، أعني هذه أول ليلة لي. قال له الشخص بلهجة ضيافية: لا يهمك، سأعمل لك القهوة بشرط أن تعتبر نفسك ضيفي.
- ما دمت تسكن هنا بصفة دائمة فأنا ضيفك.

قالها مازحاً واتجه إلى غرفته .

تصفح كتاباً، وبعد نحو ربع ساعة دخل الشخص يحمل فنجاني قهوة تتوسطهما كأس ماء.وعندئذ لم يجد السيد عبد الوهاب بداً من تكرار اعتذاره الشديد وسوء الفهم، ولكن الشخص ذكره بالشرط الذي بموجبه صنع له القهوة، فطلب إليه الجلوس وهو ينظر إلى الفناجين وعند جلوسه سأله الشخص: من أين حضرتك؟ قال وهو يرتشف القهوة المغلية جيداً والمرتفعة الحرارة:أنا يا سيدي من مدينة الحسكة شمالي البلاد، أقصى الشمال .

- وهل ستمكث طويلاً؟؟
- حوالي ستة أيام فقط وأنت؟؟
- لا أدري... هذه مسألة خاصة، هل جئت لعمل، أم لزيارة أحد؟؟
- لا هذا ولا ذاك، جئت لزيارة اللا أحد، اعتدت على هذه الزيارات كل ستة شهور، أزور من لا أعرفهم مثل زيارتي لك الآن.

قال الشخص وهو يحدق في عبد الوهاب ملياً: هذه الزيارات ضرورية على ما يبدو لأي شخص وليس لك فحسب. قال عبد الوهاب: أحياناً نضجر الذين نعرفهم ونلجأ إلى الذين لا نعرفهم ولم يسبق لنا أن رأيناهم.

ولكن هل تسمح لي أن أسألك سؤالاً؟

قال الشخص : وهل جلوسنا لغير الحديث والأسئلة والتعارف؟؟

- السيد عبد الوهاب: ماذا تعمل؟
- الشخص : يا سيدي أنا الآن متوقف عن العمل.. وغرق في صمت كئيب.

- السيد عبد الوهاب محاولاً طرد شبح الصمت: أعني مهنتك في الحياة؟
- فرفع الشخص رأسه وأجاب: كنت أعمل في الخارج ولبثت خمس سنوات متواصلة خارج البلاد، سافرت في سن العشرين وعدت منذ ثلاثة شهور.
- وبيتك، ألا أهل لك؟؟
- لي أهل ولكن منذ ثلاثة شهور تفشل محاولات الذهاب إليهم، لقد فقدت كل شيء فماذا أفعل بأهلي،، إنهم يعجزون عن تقديم أي عون لي،،
- أنا أكبرمنك بخمس سنوات وأقول بأنك ما تزال تتعثر بمد قدمك إلى الدرجة الأولى من درجات الحياة لم تشرب كأساً من النهر الذي ستشربه، اليأس في سنك لا يعني غير الهزيمة في أفضل تأويل .

قال وما زال محافظاً على هدوئه: يا سيدي قد يحدث وأغرق في نهري قبل
أن أشربه.

- قال السيد عبد الوهاب وهو يواصل كلامه دون انقطاع: الذي يجدي هو أن تصر على شربه وتدافع عن حقك للحصول عليه، وإن شئت اسبح فيه كما تسبح الطيور في الفضاء .

ولما أخذ الحديث هذا الاتجاه المتوتر عرض الشخص على السيد عبد لوهاب فنجان قهوة أخرى في غرفته والسهر حتى طلوع النهار ثم دعاه إلى الغداء

مقدماً ، فوافق السيد عبد الوهاب على أن يعذره من الغذاء وخرج ببيجامته نظر في فراغات الممر وقاده الشخص وهو يقول: ليس هناك أطيب من السهر في الفنادق ٠
جلس السيد عبد الوهاب على كرسي في الغرفة وخرج الشخص ليحضر القهوة وكانت الساعة تشير إلى الثالثة وعشر دقائق صباحاً فهتف به عبد الوهاب إلى الممشى: على فكرة، ما اسمك؟؟
جاء الصوت من الممشى: عائد .
تأمل محتويات الغرفة كل شيء يوحي بأنه سيهجر الغرفة صباح الغد، الثياب مرمية على الأرض،نقود ورقية ذات فئات صغيرة مرمية في الزوايا، أحذية مقلوبة، صحون متسخة تأكلها العفونة، فناجين قهوة مكسورة، علاقة ثياب مخلوعة، ودلف عائد حاملاً القهوة وقال: هل أعجبتك هذه الفوضى؟
- تعجبني الفوضى إذا كانت منظمة، ولكن الرائحة الكريهة تخنق، هل أعينك في الترتيب وخلق فوضى منظمة؟؟
قال عائد: لا أشعر بأي رغبة في ذلك ،
- أرجوك قل لي ما تخفيه، ثلاثة شهور وأنت لا تعمل وتعيش في هذه الغرفة، هل تفسر لي ؟؟؟
جلس عائد وقال: سأقول لك يا صديقي وأنا أعرف بأنك لا تستطيع أن تقدم لي شيئاً.
وتحدث عن طفولته السيئة وهروبه من البيت إلى العاصمة والأعمال التي قام بها وهو في الثالثة عشرة من عمره ثم سفره إلى لبنان، ومن هناك سفره إلى خارج البلاد بجواز سفر مزور، وبعد خمس سنوات من العمل استطاع أن يدخر مبلغاً جيداً وفكر

في العودة إلى قريته وبناء بيت خاص به والقيام بمشروع تجاري، وفي أثناء هذا التخطيط جاءته صاحبته وأعلمته بإصابتها بالإيدز وقال عائد وهو يحدق إليه بقوة: غادرت البلاد على الفور وعدت إلى بلدي، لم أذهب إلى قريتي إنني متردد كيف تريدني أن أذهب وأنا واثق من إصابتي فالاتصال الجنسي كان دائماً بيننا،، منذ ثلاثة شهور أسكن هنا أنفق نقود مستقبلي، كم أنا ساذج، تافه، لا مستقبل لي، سأموت قريباً،أجل لا بد أن أموت بعد شهور قليلة، بعد سنة في أقصى حدود سخاء هذا المرض البخيل، وليس أمامي إلا أن أعوض نفسي، علي أن أعيش خمسين سنة في سنة واحدة، لن أنام لحظة واحدة،،، سأعيش كل تفاصيل الحياة ولحظاتها في هذه الفترة المتبقية من عمري، لدي مبلغ جيد يساعدني على تحقيق رغباتي، هل تعتقد يا عبد الوهاب أن ذلك سيقدم لي شيئاً؟؟؟

ولم تخرج الكلمة المضبوطة من حنجرته

ونهض وقد امتلأت عيناه بالدموع فنظر إليه عائد نظرة من ندم على أمر قاله قبل لحظات وخرج عبد الوهاب دون أن يقول كلمة واحدة ولبث سهراناً حتى الثانية بعد الظهر، عندئذ نام ولم يفق إلا في الثامنة صباحاً.

فارتدى ثيابه وخرج، لمحه في الممر المؤدي إلى الأسفل، رفع كتفه مسلماً، استجاب عائد وهو يدنو إليه: أرجوك اعذرني، ولكن هذا ما حدث، ليست لدي إضافة.

فقال عبد الوهاب: أتمنى لك الشفاء.

- أين ستذهب؟؟
- إلى السوق

- هل ستأخذني معك؟؟؟
- إن شئت فأنا أرغب في النظر إلى الفتيات الجميلات وهن يشترين ثياباً وأحذية من سوق الحميدية.وقبل ذلك لي رغبة في ترتيب غرفتك، ثم أن ترتدي ثياباً جديدة.

ووافق عائد على الاقتراح وعادا إلى الغرفة، استغرقت عملية الترتيب نحو ساعة ونصف: عادت إلي الرغبة في لحياة. قالها عائد وأمسك بيد صديقه وهبط به درج الفندق، هبطا إلى قلب المدينة، وبدأ عائد يقبل على شراء كل شيء وينفق النقود بتبذير كمن يود التخلص منها. ابتاع أربعة بناطيل ومثلها من القمصان الصيفية لي وله ومجموعة هدايا كان يهديها إلى الناس في الطرقات ويقول: لماذا تمنعني من أكون مبذراً للحظات فقط في نهاية هذا العمر، ليس مبذراً بالمعنى الديني، بل سخياً إن شئت بمفهومي؟؟ وفي الواقع ما صرفه في ساعتين فاق ما جلبته معي لقضاء أسبوع أضعاف المرات، وربما لو كنت في موقفه لما ترددت في ذلك ورغم هذا فلا أعرف، ولست متأكداً بأنني سأموت قبله أو بعده، فقط هذه اللامعرفية مجدية وكلما زدت جهلاً بها ، تمسكت بالحياة وكلما زدت علماً بها صرت مثل عائد. هذا الجهل الأعمق يمنحني القدرة على الاتزان وفجأة هتف عائد بطفولة: عبد الوهاب أرجوك انظر ، ذاك الشاب انظر إنه في عمري انظر إلى أناقته، ونظرت إليه قائلاً: ما به يا عائد لقد وعد حبيبته في الحديقة وتأنق لها.

فقال عائد في حزن لن أنساه أبداً: لا أحسده على شيء فقط أحسده لأنه ليس مصاباً بالإيدز.

وانحدرت دموع صادقة من عينيه وبعد قليل وضع ورقة نقدية من فئة خمسمائة ليرة في يد طفلة تمشي مع والدتها، دون أن تراه الوالدة ومشينا وقال مرة أخرى بذات الحزن المؤلم: أرجوك انظر إلى هذه الفتاة الجميلة.
قلت وأنا أنظر: ما بها يا عائد؟؟
ليست مصـ،،،، ولم تدعه الغصة يكمل .
وبدأ يتصرف كالأطفال، يشتري الألعاب، والدمى، والسكاكر، كل تصرفاته كانت تلفت نظري وكنت أتحاشاها في مواقف وابتعد عنه، وكنت أصر على عدم استيائي في مواجهته، وأردد في سري: سوف يموت غداً.
عدنا إلى الفندق مساءً، دخلنا غرفته واقترح أن نأخذ غرفة بسريرين، فقلت له: كما تريد يا عائد.
فخلع ثيابه وارتدى بيجامة النوم الجديدة وفي أثناء ذلك نظر إلى الشورت وقال: أتعرف لقد نسيت هذا الرجل منذ ثلاثة شهور، كان يذكرني بنفسه كل يوم والآن أشعر بأنه مقطوع، لقد استسلم لرائحة الموت، تناول قلماً وكتب عليه/ جحيم / وكتب / إيدز / ثم ارتدى بيجامته وصار يتمتم بعبارات لم أفهمها وكأنها لغة أجنبية لم يعجبني هذا الهذيان فهرعت إلى غرفتي وغرت في نوم عميق كان هو محرك حلمي .
استفاق السيد عبد الوهاب في الساعة السابعة صباحاً مد يده إلى سماعة الهاتف وطلب غرفة عائد،عندئذ قلت له بأنني دعوته إلى وجبة الفطور في محاولة للاعتذار على تركي المفاجئ له ليلة البارحة وبعد نحو ربع ساعة جاء عائد مرتدياً ثيابه، فدخلت الحمام ولدى خروجي قال عائد: أتعرف؟؟

قلت: لا
قال: أحسدك لأنك لست .....
- ومددت يدي إلى شفتيه: أحياناً نتعلم من المرض أكثر من تعلمنا من الشفاء، ويمكن أن نتعلم من المرض في سنة ما لم نتعلمه من الشفاء في ثلاثين سنة.

فقال عائد: دوماً تحسسني بالانتصار حتى وأنا في آخر خطوات الهزيمة والاستسلام.
قلت: ليست المسألة في أن أعيش يوماً وسنة بعدك أو قبلك وفي جميع الأحوال لن نكون بعد سنوات في الحياة هنا قد أخرج الآن وتصطدمني سيارة فأذهب بحادث، عندئذ وفي لحظات الاحتضار قد أحسدك على مرضك لأنه لن يقتلك بعد دقيقة واحدة على الأقل.
أقفلت باب الغرفة أودعت المفتاح في لوحة المفاتيح وخرجنا، صار عائد ينط على الدرج كالأطفال، نزلنا إلى قلب العاصمة، اتجهنا إلى الصالحية وإلى / أبو رمانة / ٠
قال عائد: أتعرف قبل التعرف إليك كنت أنتظر الموت فقط الآن أحس بأنه يتعثر بخطواته وينتظر ذهابك لينهض ويهرع إلي، لا يمكن للإنسان أن يخسر كل شيء دفعة واحدة،،
قلت: لن أتركك... ما رأيك أن تقبل دعوتي لزيارتي في مدينتي وتترك الموت هنا؟
شدته عبارة / تترك الموت هنا / وقال: سأجيء
قلت: أنا مستعد

قال بجدية: وأنا أيضاً، وازداد وجهه تفتحاً.. كل ما فيه بدأ يشرق، إنه في عنفوان الشباب والمراهقة، ويلفت أنظار جميلات الصالحية بقدرة عجيبة ولكنه لا يأبه بهن، كلما رأى شاباً هتف : انظر يا عبد، إنه غير مصاب، ليتني كنته.
وما أقسى وقع هذه العبارة على سمعي، ويكررها بحسرة، وفي نهاية الشارع جلسنا في حديقة صامتة لا أحد فيها، استرخى عائد على الكرسي ولأول مرة تحدث بحكمة وقال وهو لا ينظر إلي: أتعرف يجب أن يصاب كل شخص بالإيدز ثم يشفى ليدرك قيمة عدم إصابته الثرية.
وبعد قليل قال: على كل شخص إذا أراد أن يستوعب الحياة أن يعيش هذا الشعور ثم يشفى، وصمت، نظر إلي، ثم عاد إلى / اللاشيء /
واسترسل: الإيدز خطوة الإنسان الأخيرة لولادة حياة أكثر نضجاً،
وقال: إن الله يحبنا جميعاً ..
ثم دفن وجهه في راحتي كفيه وتمتم كأنما يغني: لا أريد شيئاً سوى أن أحس للحظة واحدة بأنني لست مصاباً أن أعيش هذه اللحظة، متحرراً من هذا الشبح القاتل الذي يزداد ثقلاً على حركتي ورغبتي في العيش، لا أحد بمقدوره أن يتفهم الحياة بقدري في هذا اليوم البائس من حياتي إنني أمقت الإيدز، لو كان رجلاً لتصديت له، أشعر بسفالته، بمكره مثل الماء الذي يتسرب تحت التبن،ليس بوسع مخلوق على وجه الأرض أن يتعلق بالحياة كالذي داهمه الإيدز الجبان، أنا أفهم تماماً بأنه جبان، وينظر إلى إنجازات البشر بحقد أعمى أكثر من زملائه

إنني أعيش الموت لحظة بلحظة يا عبد،، الآخرون ربما ينسون هذا الإحساس المدمر، لأن الموت يبدو على البعد دوماً ولا يذكرهم، أما أنا فأتذكره كلما شاهدت شخصاً بدون إصابة ، أعتقد بأن عدد سكاننا يتجاوز ستة عشر مليوناً وإنني واحد فقط من كل هؤلاء، هذا الإحساس يدمرني ويخنقني .الآخرون لايستوعبون هذا الرعب عندما يقولون : سنموت غدا ، ولايدرون أي غد يعنون ، إنها تخرج على صيغة نكتة ، وقد لايعيشون هذا الواقع الأليم إلا لحظات الاحتضار الأخيرة ، حتى الطبيب يرفض أن يضعهم في مواجهة رعب كهذا ، أما أنا فأعيش حياتي كلها في احتضار دائم وكل يوم يصرخون في وسائل الإعلام وفي الشوارع والملصقات : لن تشفى ٠ وتتعالى صيحات التهديد والوعيد وكأنني لست واحدا من بني البشر ، وكأنهم بدون خطايا ٠ ليتهم جربوا لحظة ألم واحدة من لحظاتي الجحيمية لمزقوا كل هذه الملصقات ، ولتحدثوا بشيء من تكاتف إنساني ٠ مع هذا اليأس٠ أواصل حياتي وأعيش هذه الوخزات الروحية المؤلمة أياما متلاحقة لاتنتهي وأتمسك بها لتمكنني من العيش ، وكلما تحققت أمنيتي في العيش أياما أخرى انتشر المرض في حواسي واحتل كل ذرة من جسدي٠

كنت أتصور عودتي إلى قريتي الطيبة ، وإلى أخوتي الصغار الذين ولدوا ولم أرهم بعد ، ولا أعرف ملامحهم ، قريتي أعظم من كل تلك البلاد ، لا لن أرجع إليها حاملا الموت ، لن أحمل إليها الدمار ، كان علي أن أعود سليما مثلما خرجت ، وأحمل إليها الحياة ٠ أفضّل البقاء هنا ، الموت هنا ، وأحيانا أفكر في الانتحار في ظروف غامضة حتى لاينكشف مرضي ، لقد مات

كل شيء بالنسبة إلي ، غربت شمسي في أولى إشراقتها ولن تشرق ثانية ٠ وتغير لون عائد ، ركبه شبح الموت ، ماتت الحياة في نبرات صوته الخافتة التي بدت لي الأخيرة التي تصدر منه ، وصار ينظر إلي ببؤس العالم : / أنا والحياة كلانا أخذ حقه من الآخر / ٠ لن أستمع إلى موسيقاكم بعد الآن ، لن أغني ، لن أرتدي ثيابا جديدة ، لن أرى خيوط الشمس الأولى ، سارتمي في ظلمة أبدية ولايزور قبري أحد ، لاأحد يزرع وردة ، ولا أحد يتمهل للحظة واحدة بجانبي ، هناك عندما تسلبني الحياة كل شيء ، حتى هذه الأنفاس المتبقية الميتة ٠ لن أضيف كلمة أخرى ، أشعر بصداع في رأسي يفقدني كل لحظة توازن ، هل ستأخذني إلى الفندق ، أرجوك لاأريد أن أموت في الشارع ، أريد أن يحدث ذلك وأنا بمفردي ، أن يحدث ذلك بخفية تامة وأنا ممدد على سرير الموت دون أن يكون بوسع أحد أن يصوب النظرة الأخيرة إلى موتي ٠ وأخذت عائد إلى الفندق والدموع تملأ عيني ، إنه في أبأس لحظات حياته ، لم يسبق لي أن شاهدت مبلغ هذا البؤس لدى مخلوق ٠ وصلنا الفندق بسيارة وكأنها سيارة إسعاف ، دخلنا غرفته ، لم أتركه ، كنت خائفا عليه ، واستلقيت إلى جانبه في سريره حتى الصباح ٠ استفقت رأيته نائما ولكن ملامح وجهه بدت هادئة مسترخية ، وبعد قليل فتح عينيه عندما تركت السرير ، ابتسم لي وصار يقبلني بحرارة أشد من حرارة ظهيرات تموز ٠ همست له : انظر ياعائد ، هناك من لايظفر سوى بسنتين من الحياة ، ومن لايظفر سوى بشهرين ، أنت ظفرت بخمس وعشرين سنة مجانية بدون مقابل ، أي شيء آخر تريد ، لنفرض أنك مت منذ

ثلاث سنوات ، أو أنك ستموت بعد عشرة أيام ، ما الجديد في الأمر ، يكون الأمر مؤلما عندما يترك المرء الحياة ويدرك أن هناك من لا يموت ، الموت هومصبنا جميعا ، وفي لحظة الموت يتساوى معك من عاش مائة سنة ، يمكن لك أن تكتشف الحياة كلها في سنة واحدة من سنوات عمرك ما لم يكتشفها من عاش مائة سنة ٠

خرجت هذه العبارات من فم السيد عبد الوهاب وهي محاولات أخيرة لتهدئة صديقه ، وقد استجاب لبعضها ، واقترح عليه السهر الليلة حتى الصباح في إحدى النوادي الليلية ، وفي أمسية لن ينساها اتجها إلى ناد على نهر بردى ، جلسا على مائدة عامرة تحت الأشجار واتفقا أن العمر كله كان تمهيدا لهذه الليلة وأما ما يأتي بعدها فلايهم إن طال أو قصر ٠ أجل أيها السيد سأروي لك مرة أخرى وقائع إجازتي ٠ لقد رجعنا إلى الفندق في الخامسة صباحا ، نمنا مرة أخرى على سريره ، واستفقنا في الثانية ظهرا ، كان عائد في قمة توهجه وعشقه للحياة ويدندن بأغنيات دافئة فقلت له : لقد أمضيت عشرة أيام معك هل تسمح لي بالعودة ؟

وفجأة عانقني وصرخ بهستيريا : أرجوك لاتتركني ٠

قلت : لنسافر معا ٠

قال : فيما بعد ، أنت لست مرتبطا بوظيفة ، لايهمك ٠ فقلت ولاأدري كيف خرجت العبارة من فمي : ياعائد قد لاتكون مصابا ٠

قال : هذا مستحيل ، المرض ينتقل عبر الاتصال ، وأنا اتصلت معها كثيرا

قلت : انه احتمال ، ما رأيك بالتحليل ؟
قال : هذا هذيان
قلت : لن نخسر شيئا أرجوك ٠٠ ووافق مكرها ٠ دخلنا المشفى الخاص وشرحنا الأمر للطبيب الذي غرز إبرة في ساعد عائد ، سحب قليلا من دم وطلب أن نراجعه بعد يومين ليخبرنا بالنتيجة ٠
وطوال هذين اليومين عاش عائد في توتر وأحيانا لاينام ساعة واحدة وهو يعد الساعات الذاهبة والساعات المتبقية ، أجل كان يعد الساعات ساعة ، وعندما جاء الموعد ، لم يأت ، طلب إلي الذهاب بمفردي وجلب النتيجة ، ولست أدري أي احتمالات كان يضع ، ولماذا قرر الخروج من الفندق معي ، وعندما قلت له : أين ستذهب خلال هذه الساعة ؟ لم يجبني ، واكتفى بإعلامي أننا ستلتقي في الفندق لدى عودتي ٠ سلّمت على الطبيب وطلبت منه النتيجة فأحضرها وناولها لي قائلا : لديك فقر دم ٠٠ وقبل أن يكمل قلت : لست أنا ،إنه صديقي ٠ فقال : آ سف لم أعد أذكر ، ثم أردف وهو ينظر في نتيجة التحاليل ويناولها ليدي : ونسبة السكر قليلة في دمه ، أنصحه بتناول الكاتو والكليجة بدلا عن الخبز لبضعة أيام ٠ قلت : ألا يوجد إيدز ؟ فنظر إلي قائلا : قلت لك كل شيء ٠٠هل سمعتني بما تقول ؟
قلت : لا ولكن أريدك أن تقولها ، أن تلفظها حتى يطمئن قلبي ٠
قال : لايوجد ماتقول ٠ سحبت نتيجة التحاليل من يده بفرح طفولي غامر وهرعت صوب الفندق ركضا وأنا أظن أن أي وسيلة نقل لن تكون أسرع مني ، رأيت عائد متوترا في انتظاري وما إن رآني حتى انتصب واقفا : هه اخبرني

قلت : دعني أسترد أنفاسي ،
قال : هل أعطاك النتيجة ؟
قلت : أجل أصبر قليلا
قال : قلها ، أرجو ك
قلت وقد نهضت بعد لحظات من جلوس : أنت لست مصابا يا عائد ، بإمكانك الآن أن تعيش شعور غير المصاب ٠ علاه اصفرار بعكس ماتوقعت ، وبعد قليل مد كفه إلى الجهة اليسرى من صدره وضغط بقوة وقد احتقن وجهه بصورة غريبة ، ثم ببطء شديد رمى جسده علي ٠٠ قلت : عائد مبروك ٠ وأحسستُ بثقل غير عادي لجسده ، تراجعت إلى الخلف خطوة ، وسقط عائد على الأرض دون حراك ، صحت به ولم يرد ، أعلمت صاحب الفندق ، وبعد قليل جاءت سيارة الإسعاف وأخذته جثة هامدة ٠ في اليوم نفسه أعددت حقائبي ، تركت الثياب التي اشتراها لي عائد ، واتجهت إلى محطة القطار وأنا ألتفت خلفي وأتوقع أن يأتيني صوته من نافذة غرفته في ذاك الفندق الضخم ٠

مـــن ســيرة شــداد

تناهت إلى مسمعه حركات غريبة استطاع أن يميز بينهما وبين حركـات الفئـران التـي تبـدأ فـي هـذا الوقـت مـن سـكون الليـل ممارسة رياضتها، ورغم أنه لا يبصرها بسبب الظلمـة الدامسـة إلا أنه يتحسسها وهي تتقافز على جسده. وأحياناً يكون مستغرقاً في النوم فينتفض على فأر يقرط أحد أعضائه ،يصرخ كبركـان: ابنـة الكلـب.. ابنـة الكلـب، الفئـران أكلتنـي. فتكـون فـي الغرفـة المقابلة مستغرقة في نومها، أو أنها تسمع وتتكاسل أن تجيب، وإذا ازداد اصـطراخاً فـي مثـل هـذا الوقـت المتـأخر مـن الليـل ورأت أنها لم تعد تحتمل سماع الصوت الذي تكرهه، تقفز من فراشها ملغومة بالسباب وتقف خلف بابه المغلق إلى أن تنتهي عائدة لفرشتها: كل ليلة نعيد هذه الاسطوانة، ألا تستطيع أن تنام

دون أن تسمعها، ماذا تريدني أن أفعل للفئران، افترض أنها تمازحك.
الليلة، الحركة لا تشبه حركة الفئران، إنها تشبه خطوات إنسان وهي تقع في مسمعه، عندئذ انتابه صمت على صمت وبدأ بالكاد يستعين بحدسه ليصور في مخيلته أن زوجته تركت حجرتها حافية القدمين لتشير للداخل أن يخفف من وطأة قدميه، أو أن يخلع نعله حتى لا يوقظ النائم من نومه. وأمام هذا الحدس قفزت صور من الماضي إلى مخيلته: أنه ذاته ينام في استضافة رجل أصيب فجأة بمس في عقله، ينهض بعد منتصف الليل تاركاً مضيفه النائم في نومه، تمد المرأة رأسها من الباب مشيرة إليه أن يخفف من وطأة قدميه أو يخلع نعله، ثم تدنو إليه حافية وتقوده إلى حجرتها وهي تهمس: امش ببطء يا حمار، وقع الحذاء يُنهض النائم. وفي الداخل تقول له: ليت المس أصيب عقله فحسب، إنه أصيب حتى رجولته، هل كان نائماً؟ وقبل أن يجيب قطع الواقع عنه حبال خياله الذي طاب له ورغب أن يلبث فيه ولا يعود إلى واقعه المؤلم، فالتقطت أذناه صوتاً رجولياً خافتاً:
هل الكلب نائم؟
ثم صوت امرأته: وإن لم يكن نائماً.
تحول الظن إلى واقع، وفار الدم في عروقه. انتفض نفضة نهوض من الفراش، لكنه اصطدم بحقيقة أنه مشلول القدمين وربما لن يستطيع أن ينتصب عليهما طوال عمره. ثمانية شهور مضت عليه وهو مستلق على ظهره. إنه شدّاد الذي أقلق مدينة بكل قراها ونواحيها، لا يوجد بيت فيها إلا ودبته قدماه رغم أن

سمعته تسبقه إلى كل بيت بأنه زير نساء ومحتال، وهو ذاته عندما يكون في بيته الذي نادراً ما ينام فيه ينظر إلى المرآة ويقول لزوجته: بربك يا غنيمة ألا أشبه الشيطان. فتقول غنيمة: بل إنك شيطان.

يقول: لكن الناس يفتحون بيوتهم لي قبل أن أصلها بألف خطوة، وأحياناً عندما يعلمون بقدومي في الليل وأتأخر قليلاً، فإنهم يتركون أبوابهم مفتوحة طوال الليل بانتظاري، فأدخل وأرى عشائي بجانب الفراش ينتظرني. أتعشى وأصنع إبريقاً من الشاي – ثم يضحك وهو يردف في سره: وأنام مع امرأة- دون أن يشعر بي أحد ويتفاجأون صباحاً بدراجتي في الحوش وبي نائماً في الفراش.

هؤلاء لا يستقبلوه مع سمعته السيئة لسواد عينيه، إنهم يعرفون أن شداداً لن يخرج قبل أن يترك لكل مدخن نصيبه من التبغ التركي الطازج ذو الرائحة الطيبة، وعلى الأغلب فإن غالبية سكان هذه البيوت نساءً ورجالاً يدخنون، وشداد هو مصدر دخانهم الوحيد، فهو يذهب إلى حدود تركيا بدراجته النارية ذات العجلتين ويشتري ما يريد من التبغ وورق اللف وعلب التبغ التي تلف السجائر بشكل آلي. فيأتي ويبيع في القرى وأحياناً يشتغل حسب الطلب. فيؤمن لسكان القرى طلباتهم الخاصة مثل القضامة التركية والزبيب والجوز والعلكة والأقمشة وقد يؤمن مسدساً وعيارات نارية عندما يغريه أحدهم بربح جيد. ثمانية شهور مضت عليه وهو قيد الإقامة الجبرية في الغرفة التي كانت مخصصة للدواب التي يجلبها من القرى فيشبّه حاله بحال الطير الذي كُسرت جناحاه. لقد فعل كل شيء من أجل ألا يكون

مثل هذا الطير. باع الدواب.. الدراجة.. أغراض البيت.. أتى على أي شيء يمكن له أن يباع ولو بمبلغ زهيد عله يساعد على الشفاء، دار على أطباء العاصمة وعلى مشافيها وعاد خائباً دون أي أمل في الشفاء، أمله الوحيد هو حدوث معجزة ينهض على إثرها وهي حالة استثنائية قد تحدث لشخص واحد من مئة حالة، وأمام هذا الواقع فقد خيرته زوجته بين أن يتنازل عن البيت لها أو تتركه خوفاً من أن يقدم على بيع البيت المسجل باسمه جرياً خلف أمل واهم. فاضطر مرغماً تحت تهديدها أن يتنازل عن البيت. وعند ذاك راحت تنظف غرفة الدواب من الروث وتفرش فيها حصيرة مهترئة ومخدة واسفنجة ولحافاً، وخيرته مرة أخرى بين أن تطرده من البيت وبين أن يقيم في تلك الغرفة، ومما زادها عناداً وإصراراً على موقفها أن ابنهما الوحيد البالغ من العمر عشرين سنة وقف في صف أمه، وهو الآخر صار يستفز من الروائح الكريهة التي تصدر من أبيه، وغدا يخجل من استقبال صديق لدى عودته من الجامعة يومي الخميس والجمعة ليقضيهما في البيت خاصة وأن هذا الأب العاجز لم يعد مصدر مصروفه، فهذا الطالب يعمل في مطعم طوال الليل ليحصل على نفقات الدراسة.

وبشيء من القوة حملاه ووضعاه في مسكنه الجديد، ثم جلبت المرأة حزمة أكياس سوداء حطتها بجانب رأسه ليقضي حاجته فيها.

قلتُ لكِ: هل الكلب نائم؟

قلتُ لكَ: وإن لم يكن نائماً.

اخترق الصوتان مسمعه كطلقتين، جمدت الدموع في عينيه، وكم تمنى أن تحدث تلك المعجزة ولو لنصف ساعة فقط. سينتفض عليها كذئب ويضع كفيه في رقبتها، لن يتركها حتى تلفظ الرمق الأخير. ولكن مرارة الفشل عادت واستعمرت كل حاسة من حواسه وبالكاد خرجت تمتمة من فيه: ابنة القواد تخونني بعد هذا العمر. رشف قليلاً من ماء، ثم مد يده إلى علبة التبغ، لف سيجارة بيدين راجفتين، أشعلها، مد يده إلى إبريق الشاي البارد، صب كأساً وأخذ التوتر يتصاعد في عروقه. لم يكن يشعر بمرور الوقت لولا أن تناهى إلى سمعه:

الكلب غارق في نومه.

حتى لو لم يكن غارقاً في نومه.

عندها أدرك بأن الرجل قضى حاجته وخرج. وأحس بأنه قضى على ما في العلبة من تبغ وما في الإبريق من شاي ،همهم لنفسه: لقد دخنت دخان وشربت شاي يومين في ساعة. و للتو أدرك أن الغرفة المغلقة اكتظت بالدخان وراوده شعور بأنه سيختنق لو لم يتغير الهواء. تناولته نوبة سعال شديدة أحس بالبرد يسري في عروقه وتذكر حديثهما الصارم في وجهه: هذا السخان لن أضعه في الكهرباء إلا ساعتين اثنتين في اليوم، ساعة في النهار، وساعة في الليل. إنما تشفط الكهرباء.. من أين سنسدد الفواتير وحضرتك ممدد على ظهرك وتريد دخاناً وشاياً، وأيضاً تريد لبناً في الصباح، يا رجل ألا يكفي أنني أتسول لك الخبز والشاي من بيت أخي الذي لولاه لمتنا جوعاً... والأكثر من هذا إنك تريد الغداء والعشاء وتقول بأنك تشتهي العدس.. أتعلم أن كيلو العدس بثلاثين ليرة.. وتقول بأنك

تشتهي الرز وغداً ربما تطلب اللحم، مثلاً أن تفقد عقلك وتطلب"دجاجة".. أجل قد يحدث هذا في المستقبل لأنك منذ ثلاثة شهور ألمحت إلي بأن اللحم لم يدخل بيتنا منذ شهرين. عليك أن تشكر أخي صباح مساء لأنه تبرع وجلب لنا كيساً من البصل اليابس وكيساً من البرغل وأنه يتبرع كل يومين ويرسل مع ابنه ربطة خبز. ليكن بعلمك إنه لا يفعل ذلك لسواد عينيك، بل من أجل أخته حتى يقيها الموت جوعاً.. و تعرف أن السمان توقف عن بيعنا السكر والشاي والتبغ منذ الشهر الفائت بعد أن تراكمت علينا الديون. يا رجل ألا تحمد الله بأنني أوؤمن لك فطوراً من خبز وشاي، وغداء وعشاء من برغل وبصل. وأوؤمن لك ساعتين تدفئة. أقسم برأس أخي فإن تماديت، أو مردت سأطردك من البيت وتعرف بأنك سجلت البيت باسمي بعد جريمتك بحق ذلك المسكين، ولكن ماذا أفعل بك.. إن ابني هو الذي يجعلني صابرة في هذه المعيشة.. لا أعرف ما هو ذنبي الذي أذنبته حتى عرفني الله بنتن مثلك. لكن إبني وقرة عيني هو الذي يجعلني ساكتة على أفعالك، إنك كومة قذارة. تعرف أن كلمة واحدة مني تأخذك في غياهب السجون مدى حياتك، لكن ما ذنب ابني كي يُعار بأب قاطع طريق. كم أنت ظالم أيها الرجل. كنت تجرجرني بالقوة لنقف في طرقات مقطوعة...

يقاطعها ساعلاً: اخرسي ابنة الحرام.. صوتك يصل الشارع، يكفي ما نحن فيه. وانطلق منه صراخ: ابنة الحرام.. افتحي علي الباب.. سأختنق.

قذف الإبريق على الباب، قذف الكأس، صرخ بأعلى صوته.. ثم بكى بأعلى صوته.. وصار يلطم خديه، يشد شعره، يخرمش وجهه، يخبط رأسه على الحائط.لم تستجب المرأة، فقد غارت في نوم عميق ٠

عند الصباح فتحت الباب المقفول ودخلت عليه رأت بقع دم جامدة على ثيابه والفراش، وكل غرض مقذوف في مكان.

قالت: هل فقدت عقلك؟ نظر إليها وخرجت من فمه عبارة: تخونينني بعد عشرين سنة زواج يا غنيمة!!.

قالت: أجل خنتك، وكنت متقصدة أن تسمع بأذنيك ليكن كل شيء واضحاً، فأنا لا أريد أن أطعنك في ظهرك. لا تنس بأنني امرأة وأنك لم تعد رجلاً ،أنا لست صابرة إلا من أجل ابني حتى يكمل دراسته ويتخرج، ومن ناحية أخرى فإني إذا طلبت منك أن تطلقني لأتزوج بغيرك، سأضطر مرغمة لطردك من بيتي، ولا أظن أن أختك المتزوجة الوحيدة ستحتمل رائحتك النتنة شهرين في بيتها، ولا حتى عمك وأولاده. لم يبق أمامي إلا أن أخونك، لكن أريد أن يحدث هذا وأنت على دراية به. لقد سُدت كل الأبواب في وجهي وأنت سددتها، قد أستطيع أن أحتمل الجوع والبرد، ولكن لا تصدق بأنني سأكون قادرة على نسيان أنوثتي ، ربما لو بقيت حتى الآن عازبة لاستطاعت العزوبية أن تطفئ سنة بعد سنة من لهيب الأنوثة ، واستطعت أن أنسى في مثل هذا العمر بأنني أنثى مثل ملايين العانسات في العالم. إنني أخونك، أريد أن تسمع هذا جيداً حتى لا تنظر إلى نظرة احتقار في يوم ما.. إنني امرأة تحتاج لرجل، فإن كانت لديك قوة الرجولة فأنوثتي لك، وإن أردت أن تطلقني فهذا يسرني، فهيا

افعل واحدة من الاثنتين وإن عجزت ليس أمامك إلا أن تدعني وشأني وكن على ثقة بأني أتذوق مرارة الخيانة أضعاف ما تتذوقها .
قذفت كلماتها الأخيرة في وجهه قذفاً وأولته ظهرها خارجة.
كانت قد حدثت خلافات حادة بين البلدين المجاورين وصلت حد تحرك القوات العسكرية والإعلان عن بدء حرب، ومع مرور الشهور متنت أواصر صداقة جديدة بينهما على طريقة الحكمة القائلة:"لا محبة إلا بعد عداوة". وربما كان شداد أكثر مواطني البلدين تضرراً في ذروة تلك الخلافات الحادة، فقد اضطر للتوقف عن عمله لأن الحدود تحولت إلى لغم موقوت ولم يعد بمقدور طير أن يعبرها. في الأسبوع الثاني نفذت بضاعة شداد كلها وبقي عاطلاً عن العمل. وبعد ذلك لاحظ حتى البيوت بدأت تستقبله ببرود وقد علم الناس أن العلاقات متوترة بين البلدين وربما لم يعد شداد ينفعهما بشيء خاصة وأنه في الفترة الأخيرة بدأ يتردد إليهم خاوياً، بل وأحياناً يطلب منهم السجائر. وهنا وسوست إليه نفسه بأن يتحول إلى قاطع طريق، ولا يدري كيف راودته هذه الفكرة فبدأ يخطط لها شهراً كاملاً واستطاع أن يقنع زوجته بها لأن عمله الجديد هذا سيعتمد على دهائها أيضاً. وخططا للأمر جيداً، فهما سيقفان في طريق مقطوع ليلاً، ترتدي المرأة ثياباً مغرية بعض الشيء وتشير للسيارات القادمة بالوقوف، وما أن تقف يصعدان، وبعد قليل يشهر شداد المسدس في وجه السائق ويطلب إليه الوقوف، ثم يسلبه جميع أمواله وما يمكن أن يُسلب. ومرة أخرى يأمره بالعودة إلى ذات المكان حيث دراجته تنتظرهما في منحدر. هناك يعيز لزوجته أن

تربطه وتكممه بالعدة المجهزة لهذا الغرض، وينطلقان في أقصى سرعة تحسباً لأي طارئ. بعد نحو شهرين من عمله الجديد هذا فوجئت زوجته بشرطي من المشفى الوطني يطرق الباب ويخبرها أن زوجها المدعو شداد قد صدم جذع شجرة وهو راقد في المشفى، وفي صبيحة اليوم التالي قال لها الأطباء بأن زوجها أصيب بشلل في ساقيه وربما لن يقف عليهما مرة أخرى.

يعم ليل جديد فتسمع أذناه: هل الكلب نائم

- : وإن لم يكن نائماً

يلف سيجارة من علبة تبغه، يملأ كأساً من شاي بارد مر ويبقى في حالة انتظار حتى تسمع أذناه مرة ثانية:

- الكلب غارق في نومه.

- وإن لم يكن غارقاً في نومه.

فيشعر بأن الستار أسدل على اليوم وانتهى، يستسلم للنوم ليشرق عليه يوم آخر جديد. ومع مرور الأيام أدمنت أذناه هاتين العبارتين، الأولى تفتح شهيته للدخان والشاي والخيال الخصيب، والثانية تخدره وتنعس عينيه فيغور في نوم عميق. أما إذا صدف ولم يأت الضيف فإنه يلبث مستيقظاً حتى طلوع الضوء عله يدخل متأخراً في أي لحظة. وعندما تدخل زوجته إليه في الصباح فإن أول ما يقول لها: ما بال ضيفنا لم يأت البارحة.. قولي ألا يطيل علينا غيابه .

الفصـــل الثا نـــــــــي

الجـوع

منذ ثلاثة شهور وأنا أعاني فقر الدم ، عندما أمد يدي لأصافح أحدا ، يراها تخفق بسبب الارتجاف ويصوّب نظرة شفقة إلي . كل الذين يرونني يراهنون بأنني على وشك الموت بسبب هذا الصفار الطافح في وجهي ، وتتوارد إلى سمعي همساتهم : إنه صفار الموت . وعندما أمشي ساعة على قدمَي ، أشعر بدوّار في رأسي وإنهاك في مفاصلي ، فأغمض عينَي وأبرك حيثما ترميني قدماي مستسلما لشبح الموت ، لكنني بعد نصف ساعة من الاستلقاء على الظهر أفتح عينَي فأكتشف بأنني ما أزال حيا ، أستعين بما في جسدي من بقايا قوة خائرة وأنهض ماشيا حتى ترميني قدماي بعد ساعة أخرى من المشي .

هذا هو قدري ، وهذا هو الأمل الوحيد الذي أتمسك به كل ساعة من ساعات عمري ، فأنا لاأدور في الطرقات عبثا ، بل أبحث عن عمل يمكن أن أقوم به لقاء مبلغ يمكّنني من شراء اللحم والبيض والحلويات والفاكهة واللوز ، فقد قال لي الطبيب بأنني لا أحتاج إلى أدوية قدر حاجتي إلى التغذية الجيدة ،إضافة إلى الاستحمام بصابون غار ممتاز ذي رائحة طيبة مرة كل يومين لأن لامرض بي ، وكل ما أعانيه هو فقر دم أتاني بسبب سوء التغذية . طبطب الحكيم على كتفي قائلا : أنت معافى يا بطل ، ما عليك سوى أن تكثر من الطعام الذي وصفته لك . وكتب لي أنواع الطعام على وصفة طبية أحتفظ بها في جيبي حتى لا أنساها ٠

مضت ثلاثة شهور على وجود هذه الوصفة في جيبي دون أن أتمكن من استخدام جزء منها ، جبت شوارع المدينة عشرات المرات ، دخلت كل المحال سائلا عن عمل دون فائدة ، عندما أمضي بجانب مطعم وأرى الناس في الداخل يأكلون اللحم المشوي أقف في المدخل لعل صاحب المطعم يكلفني بعمل فيعطيني لقاء ذلك قطعة لحم على خبز ، وأتخيلني جالسا كهؤلاء الأوادم وأشبع لحما ولو مرة واحدة بيد أن أجير المطعم يوقظني من الحلم بركلة على قفاي ويدفع بي بعيدا عن حلمي . أعرف بأنهم لا يتضايقون من ثيابي الرثة ، أومن الرائحة الكريهة التي تفوح مني ، أو من شحوب وجهي ، لأنني أرى المرضى في الداخل ، وكذلك الذين يعملون في الحفريات ، والذين يعملون في المنطقة الصناعية بثيابهم وروائحهم الغارقة

في الشحوم والزيوت والغبار ، أراهم يُستقبلون ويوَدَعون بالترحاب من قِبل أصحاب المطاعم ومن جميع العاملين وحتى من الجالسين ، وهذا ما يحدث لي عندما أقف أمام بائع صابون الغار وأشم الرائحة الطيبة وأتخيلني أستحم بقطعة تزيل عن جسدي الرائحة الكريهة وتستبدلها برائحة طيبة ، أو عندما أقف أمام بائع الخضار والفاكهة ، أو بائع المكسرات .

كأن الناس يتحاشون النظر إلي ، يتحاشون الاقتراب مني ، وكأنني كائن غير مرغوب به . ولكنني أواظب على الخروج من بيتي عند طلوع الشمس ولا أعود إليه إلا مع الغروب .

دوما أقول بأن رحمة ربي وسعت كل شيء ولابد من الصبر على هذا الحرمان ، إن أبواب الرزق واسعة وعليّ ألا أيأس وأنا ما أزال في مقتبل العمر بعد أن توفي والداي وتركاني وحيدا في هذا العالم .

لدى مروري أمام بائع السمك استوقفني منظر رجل يوقف دراجته الهوائية أمام المحل ، ثم يفك من المقعد الخلفي كيسا من الخيش ، وينوّله لصاحب المحل . دفعتني رغبة الاستطلاع لرؤية ما بداخل الكيس ، فدنوت ورأيت صاحب المحل يفك الكيس ويُخرج منه سمكا ، ثم يزنه ويمد يده إلى آلة حاسبة يدق عليها وينقده مبلغا من المال ، يتناوله صاحب الدراجة ويعود راكبا دراجته ، فعرفت بأنه صياد سمك و لا أدري ما الذي دفعني لأصيح به وقد ابتعد قليلا عن المحل : يا أخ .. يا أخ ..

التفت وقد تمهل بدراجته ، قلت : لو سمحت يا أخ انتظر . فوقف الرجل ، وخطوت إليه ، ألقيت عليه السلام وسألته على

الفور إن كان بحاجة إلى مساعد ليعينه في اصطياد السمك ، فقال بأنه لايحتاج إلى من يعينه لأن العملية لاتحتاج إلى أكثر من شخص .

فقلت : كيف ؟ !

قال : يا أخي أنا أصطاد السمك بواسطة صِنَّارة .

قلت هل يمكن لي أن أعمل في ذلك ؟

قال بأن النهر واسع وفيه ما يكفي كل صياد ، ثم نظر إلي وقال : لكن لاتذهب إلى النهر في الليل ، اذهب منذ الصباح ، لأن النهار وضوح .

عندذاك رأيت على الدراجة خيطا فيه قطعة فلّين ، وبرأسه صنارة وقد تم لفه على عصا من الزل .

شكرته وخطرَتْ لي فكرة أن أعمل في الصيد بواسطة صنارة ، فهي لن تكلفني شيئا ٠ عدت إلى البيت قبل انتهاء فترة بحثي عن العمل وفكرت في الأمر مليا حتى وقت متأخر من الليل ٠ سوف أجرب هذه المهنة ، لن أخسر شيئا ٠ في الصباح أحضرت خيطا وضعت في منتصفه قطعة فلين أخذتها من زجاجة قطّارة الأنف ، وعلّقت إبرة معقوفة برأسه ولففته على عصا ، ثم خرجت من البيت في السادسة صباحا متجها صوب النهر الذي يبعد عن بيتي نحو خمسة كيلو مترات ٠ مضيت على قدمي إلى أن وصلت إلى النهر ٠٠رأيت أشخاصا يصطادون ، وأشخاصا يصلون للتو ، وأشخاصا يعودون مع ما اصطادوا لأنهم أمضوا ليلتهم على النهر ٠ وجدت لنفسي مكانا من النهر الفسيح ولكنني فوجئت بأنني لم أجلب الطِعم لأضعه في الصِّنَّارة ، اتجهت إلى أقرب صياد يبعد عني نحو

خمسمائة خطوة وقلت له بأنني جئت إلى الصيد أول مرة وقد نسيت الطعم ، وأن يقرضني قليلا حتى الغد ٠ فقال بأنه يُخرج الديدان من أطراف النهر ويستخدمها كطعم ٠ ولكنني لم أملك أن أرى هذه الحيوانات الصغيرة تنغرز في الإبرة المعقوفة لتكون طعما ٠ وعندها خطر لي أن أترك الأمر كله بيد أنه قال لي بأن الصياد المجاور يستخدم أمعاء الدجاج ، فاتجهت إليه وسألته شيئا من الأمعاء على أن أعيده إليه في الغد ٠ فناولني الرجل علبة صغيرة فيها بعض الأمعاء وقال بأنني أستطيع الحصول عليها من بائعي الفروج على ألا أنساهم بين حين وحين بشيء من السمك ٠ شكرته على ذلك وعدت إلى موضعي ٠لم يكن الأمر يحتاج إلى خبرة حتى أكون صيادا ، فمجرد غطس الفلّين إلى الأسفل وصعوده إلى السطح بشكل متقطع يعني أن ثمة سمكة بدأت بنقر الطعم وعليَّ أن أسحب الخيط قليلا لأتأكد إن كانت قد علقت بالصنارة أم ماتزال تنقر ٠ مضت ساعة سحبت فيها الخيط ثلاث مرات وكانت السمكة قد أكلت الطعم دون أن تعلق ٠ في المرة الرابعة اصطدت أول سمكة ، رأيتها تتحرك في الخارج وقد علقت بالصنارة ، أمسكت بها و اكتشفت مرة أخرى بأنني لم أجلب ما أضع فيه السمك ٠ خلعتُ سترتي وعقدتها على السمكة الجيدة الحجم ٠ عندها لمحت كيسا أسود من النايلون على بعد نحو مائتي متر فرحت أحضره ووضعت سمكتي فيه ٠ شعرت بالطمأنينة وكأنني عثرت على كنز ، أجل سوف أتناول اللحم ، ياه كم بي شهية لتناول اللحم الذي لم أذقه منذ ثلاثة شهور ٠ بلغتْ الساعة الثالثة عصرا اصطدت فيها خمس سمكات ٠ شعرت

بأن الجوع أنهكني إلى حد أنني لم أعد قادرا على الإمساك بالخيط ٠ حملتُ سمكاتي الخمس واتجهت على الفور بخطوات منهكة إلى بائع السمك في السوق ، وما إن رآني أحمل كيسا وأدنو منه حتى نادى بي : تعال .. تعال .. نحن نشتري السمك من الصيادين ٠ وتناول الكيس من يدي وقد أفرغه على أرض المحل ٠ مددتُ يدي إلى سمكة وقلت : هذه السمكة عشائي ، وأعدتها إلى الكيس ٠ فوضع الرجل السمكات الأربع في الميزان وقال : إنها سمكات كبيرة ٠ ثم راح يدق على آلة حاسبة وأنقدني القيمة قائلا : كل مرة اجلب سمكك إلينا ٠ وقبل أن أنصرف أعطاني كيسا من الخيش ووجهني بأن أضع الأسماك في الكيس ، أربط فمه جيدا وأتركه بالقرب مني في الماء حتى تبقى الأسماك حية ٠ لم يمض شهر واحد حتى رأيتني وقد خرجت من عالم وأدخل في عالم آخر ، كل يوم أتناول اللحم والبيض والحلويات والفاكهة واللوز ، وأحيانا أحمل معي بعض الطعام وأشوي السمك على النهر لأنني أمضي أغلب وقتي في الصيد ، أما في المساء فأمضي الوقت مستلقيا على ظهري فأشعر بمتعة الراحة وأنا أبقى مسترخيا عشر ساعات متواصلة في فراشي الدافئ ، وبين الأمسية والثانية أدخل الحمام كما أوصاني الطبيب فأمضي ساعة كاملة أغتسل بصابون الغار الممتاز ذي الرائحة الطيبة ، وأخرج لأنام حتى الصباح وأنا أشعر بقوة حصان تندفع إلى جسدي حتى أنني شعرت بزوال فقر الدم كاملا من بدني ٠وما زاد في ذهولي هو هذا الاحتفاء الذي ألقاه من أصحاب المطاعم التي كانت في السابق تركلني لمجرد وجودي بالقرب منها ، فعندما

علموا بأنني صياد سمك غدوا يتبارون لكسب رضائي حتى أبيعهم ما أصطاد ويقدّمون لي الشاي والقهوة فأجلس مع كبارهم وكأنني شريك عزيز لديهم ، وأنا أعلم بأنني لاأملك في هذا العالم سوى صنارة لاتتجاوز قيمتها قيمة علبة دخان من الذي يدخنونه، ومن طرف آخر فإن الجوار الذين كانوا يتحاشون الرد على سلامي بدءوا يتوافدون إلى بيتي ويوصونني بالسمك الطازج الذي أوصله إلى بيوتهم حيا بواسطة الدراجة الهوائية التي اشتريتها ، وأحيانا يدخلونني بيوتهم حتى أقشّر السمك وأنظفه وأقطعه وأتبّله ليكون جاهزا ، حتى أن أحد جواري ألمح لي بأنني لو تقدمت لابنته فإنه لن يتردد من تزويجها لي ٠ للتو أدركت قيمة أن يعمل الإنسان ، أدركت أن الإنسان لايحقق حضوره في المجتمع إلا بقدر ما يعمل ويتواصل مع مجتمعه من خلال العمل ٠ أدركت أن العمل نعمة كبرى أنعمها الله على الناس حتى يتحابوا ويتواصلوا فيما بينهم ٠ لقد أنقذني عملي من شعوري الدائم بالإهانة وأنا أخرج من بيتي ، وأنا أمضي في الطرقات ، كنت أشعر بأنني كائن مهان لأنني عاطل عن العمل ، عاطل عن التواصل مع الناس ، ليس من أحد يطلب حاجة مني ، وأنا لاأستطيع أن أطلب حاجة من الآخرين لأنه سوف ينظر إلى أنني كائن متطفل وأنا ما أزال في بداية العمر ٠

بعد مرور سنة من اليوم الأول الذي ذهبت فيه إلى النهر ، اليوم السادس من أيلول الذي لاأنساه أبدا قلتُ : عليك يا رجل أن تحتفل بهذه المناسبة وتجعل من هذا اليوم عيدا سنويا لأنه اليوم الذي فتح الله فيه عليك ٠ أجل سوف أحتفل بهذا اليوم

المجيد الذي لا أنساه ما حييت ٠ لقد فتحت عينَي على العالم للتو ، لكن رغم كل هذا فكان لابد لي بأن أمر بكل تلك التجارب القاسية حتى أنظر إلى النعمة التي أنعمها الله علي فأقدرها خير تقدير ٠

في أمسية هذا اليوم الذي جعلته لنفسي عطلة ، وضعت ما طاب من الطعام على مائدة وجلست بين الخضرة في حديقة البيت أشعر بأنني في عيد وأحمد الله الذي أخرجني من الذل ، ووضعني في هذا العز ، أجل إنه الله الذي رحمني بأن أرشدني إلى هذا العمل ٠ أشعر بأنني أصلّي بين يدَي ربي وأنا في هذا النعيم ، وأنا أذكره وأشكره مع كل لقمة أضعها في فمي متذكرا أيام الجوع القاسية ٠ عند الساعة الواحدة ليلا قررت أن أقلي السمك في الحديقة وأتمم به احتفالي ، فأحضرت المقلاة ، وضعتها على جرة الغاز الصغير ة وجلست في الوسط بين المائدة والمقلاة لأتمكن من مد يدي إلى أزاهير المائدة العامرة ، ومن تحريك السمك الذي بدأ يُصدر رائحة طيبة في الحي كله ، في أثناء ذلك تذكرت بأنني لم أحضر صحنا لأضع فيه السمك المقلي ، فنهضت متجها إلى المطبخ وصوت الزيت ينذرني بقرب احتراق السمك ، امتدت يدي بسرعة إلى صحن ، عندئذ تناهى إلى سمعي صوت غريب مع صوت سقوط المقلاة على الأرض ، هُرعتُ إلى الخارج بانتفاضة مباغتة وقد ارتطم كتفي بطرف البراد وأوقعه أرضا بقوة الاندفاع المباغتة ، فرأيت قطة تئن تحت الزيت الذي سلخ عنها جلدها بقوة حرارته وشوهها تشويها مريعا ، سارعتُ إلى المطبخ ، حملت إناء من الماء البارد ورششته على جسد هذه الكائنة المستسلمة للألم ، ويبدو

أن بـرودة المـاء أخـذت تخفـف مـن حـرارة جسـدها ومـن وقـع حرارة الزيت ، فبدأتْ تصدر أنينا خافتا كأنه أنين طفل عمره ثلاثة أيام ٠ وقفت أنظر إليها وهي كذلك تصوّب لي نظرة توسل لمساعدتها على تخفيف الألم ، وتروي لي من خلال تلك النظرات التوسلية الممزوجة بالأنين بأن الجوع الكافر هو الذي دفعها إلى هذه المجازفة كي لاتنام جائعة ٠ في تلك اللحظات تذكرت جوعي ورميت المائدة بما تحتوي على الأرض ٠ نظراتها الأليمة المتوسلة توبخ تفرجي على آلامها فتجيب نظراتي لعينيها الدامعتين : لكن ما الذي بيدي فعله ؟ !! ٠ أجل فقد فقدتُ كل وسيلة للمساعدة في هذا الوقت المتأخر بين أنينها الموجع ونظراتها الدامعة ، وهذا المنظر المريع لحيوان تم سلخه حيا ، ولاأعرف إن كانت النظرات ذاتها قد أوحت لي فكرة الاتصال بمن يعينني في إنقاذ هذه المخلوقة ، إذ لايمكن لي أن أخلد في فراشي على أنين وجعها ٠ تذكرت الهاتف ، وخطر لي أن أتصل بالإسعاف ، فهو الوحيد الذي يمكن له أن يساعدني في أمر هذه المخلوقة ، ولكن ما الذي سأقوله ، وهل سيأتي رجال الإسعاف بسيارتهم في وقت كهذا لإنقاذ قطة ؟٠ لابد من أن أفعل شيئا حتى لو اضطررت إلى الكذب ، إن كل أنين من هذه الكائنة المسكينة يمزق أحشائي ٠ رفعتُ السماعة وأجريت اتصالا بالإسعاف ، قلت بأن طفلي الصغير قد احترق بالزيت وهو في حالة خطرة ٠ وعلى الفور أحضرت بطانية ولففت القطة بها حتى أخذت شكل طفل ٠ في الساعة الثالثة صباحا دوى صوت سيارة الإسعاف الذي أزاح عن نفسي بعض الاضطراب ولكن بذات الوقت استبد بي قلق إن كانت

خطتي ستنجح وأنا أحمل القطة على أنها طفلي ريثما أوصلها إلى المشفى ، وهناك سيضطرون لمعالجتها وليحدث لي بعد ذلك ما يحدث ٠ دخلتُ بتفكيري في دوامة وصوت الإسعاف يدنو من منزلي ٠ فتحتُ الباب ، رأيت السيارة تزحف إلي ، ولمحت رؤوس بعض الجوار تمتد من السطوح المجاورة ، والتف حول السيارة بعض مَنْ جاء يستطلع الأمر بدافع الفضول ٠ الطامة أنهم جميعا يعرفون بأنني عازب وأقيم بمفردي في البيت ، واقترب البعض يسألني عما بي حتى طلبتُ الإسعاف ، فتهربت من الإجابة ٠ نزل رجلان من الباب الخلفي للسيارة يحملان حمّالة إسعاف وسارعا إلى الداخل فرأيتها فرصة لأغلق الباب كي لا يدخل أحد الجوار ، طلبا مني أن أرشدهما إلى الطفل المحروق ٠ حملت البطانية الملفوفة بالقطة ومخيلتي ترتاع بالمنظرالرهيب وقلت : هذا هو ، إنه لايحتاج إلى نقالة ٠ نظرا إلي بريب وقالا بصوت واحد : ماذا حدث له ؟ ٠

احترق بالزيت ٠ قذفت الإجابة بلا مبالاة ٠ عندذاك نظرا إلى المقلاة وإلى قطع السمك المرمية بجانبها ، ثم إلى منظر المائدة المقلوبة وطلبا مني أن أريهما الطفل المحروق ٠ فقلت : هناك ٠٠ هناك ٠٠ في المشفى ٠

فقال أحدهما وهو يدنو من المائدة المقلوبة : وما الذي يضمن لنا أن هذه ليست إلا بطانية فارغة ٠

قلت : فارغة ٠٠ فارغة كيف ، فيها مخلوق يحتاج إلى إسعاف ٠

فقالا : أرنا هذا المخلوق ٠

ومن سوء حظ القطة أنها أخذت تموء في تلك اللحظة بصوت كسير وتتحرك في حضني ٠ عندئذ وضعا الحمالة على الأرض وقالا : ألا تعرف عاقبة من يزعج رجال الإسعاف دون سبب في وقت كهذا ٠ وفتح أحدهما الباب مناديا السائق بينما اختطف الثاني البطانية وفضها على الأرض لتسقط القطة وهي تصدر بقايا نشيج خافت ٠ فقال ذات الرجل موجها كلامه للسائق : صاحبنا يريد أن نسعف له / بسه / ٠ جحظت عينا السائق الناعستين قائلا باستياء : بسه ٠٠ بسه ٠
وتقدموا جميعا من المائدة المقلوبة ينظرون إلى الصحون والطعام الملقي ، وإلى القطة التي انضمت إلى تلك الفوضى العارمة التي توحي للناظر بأن شجارا ما وقع للتو في هذه الحديقة المنزلية الصغيرة ٠ ثم اتفقوا أن يأخذوني إلى مخفر المشفى لمحاسبتي على هذا الإزعاج ، فامتنعت إلاّ أن أصطحب القطة معي ، لكنهم جروني من كتفي بقوة وقادوني إلى السيارة تاركين القطة تئن وقد أحكموا الباب ٠ بوصولنا إلى المشفى أخذوني إلى شرطي وقالوا له : إليك هذا الذي أزعجنا من أجل / بسه/ ٠ أمسكني الشرطي من رقبتي وقذفني إلى غرفة التوقيف الصغيرة وأقفل علي الباب ٠ انزويت في ركن إلى أن حضر شرطي آخر في الصباح وأعلمته بقصتي فقال بأنه لايستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يحضر رئيس المخفر صباح الغد ٠ وعاد إلى قفل الباب من الخارج ٠ انتظرت إلى أن حضر رئيس المخفر عند ظهيرة اليوم التالي ، فجاء شرطي وقادني إليه ٠ لم يدعني رئيس المخفر أتفوه بكلمة ، قال بحسم : لاتقل لي بأنك أردت أن تسعف / بسه /، لقد أزعجت

الإسعاف ، لكن لأنها المرة الأولى فقد أمرت بإخلاء سبيلك ،وإياك ثم إياك أن تعيدها ٠
قلت له : لم أقصد أي إزعاج ، ولكن كانت الطريقة الوحيدة إنقاذ حياة هذه المسكينة
ضحك الرجل قائلا : مسكينة ٠٠ ثم تجلجل به الضحك إلى أن أطلق سراحي ٠ شعرت بأنني ولدت للتو ، وأنني أرى نور العالم للتو ، ولا أدري لماذا انتابني شعور غريب بأنني كنت في حلم ٠ لدى خروجي من باب المخفر ، سارعت الخطا إلى أقرب صيدلية ، ابتعت أدوية لمعالجة الحروق ومضيت نحو البيت .. فتحت الباب وكأنني لم أفتحه منذ سنة .. جريت إلى القطة ، لم أسمع لها أنينا ، ولم تلق إلي نظرات استغاثة ، لقد تحولت إلى جثة متفسخة تحت فوج هائل من الذباب الأزرق الذي أراه لأول مرة في بيتي .

من حكايا الرجل الذي لايكذ ب

رغم مسافة خمسمائة متر بين بيتي وبيت علي بطه فإننا نتعامل كجيران في هذا الحي غير المنظم بالقرب من حدود تركيا ، وهورجل في الستين من عمره، له أولاد يماثلونني في السن، قصير القامة إلى حد القزم ، جهم الوجه ، ذو نظرات حادة ، له حاجبان كثيفان ، كثير السعال ، يرتدي حتى في الأعياد ثيابا رثة ، ويبدو للمرء أن هذا الرجل لم يستحم منذ أن أنجبته أمه ، يحمل بيده حقيبة متوسطة الحجم ويدور في البيوت يلحم تنكات الجبن التي يخفيها الناس للمونة ، والأواني المعدنية المثقوبة ، وفي بيته

يملأ بوابير الغاز الصغيرة، أحيانا تزورنا زوجته وأحيانا يزورنا هو ، ولكن هذه الزيارات نادرة كأيام الأعياد أو الواجبات الاجتماعية التي تطرأ بين الجيران ٠ وأذكر أنني زرت بيت علي بطه مرتين ، مرة منذ عشر سنوات عندما اشترى أبي منه بسكليتا وأرسلني لأجلبه إلى بيتنا ، وكان بدون مقعد ولايصلح للركوب ، فقال أبي بأنه اشتراه من علي بطه بمبلغ زهيد ليصلحه ويبيعه ٠ المرة الثانية التي زرت فيها بيته كانت منذ ثلاث سنوات عندما أصابت ابنه الطفل / حَمَدو / رصاصة في عرس بالحي فذهبت أعزيه ٠ أما هذه الزيارة الثالثة فقد حدثت منذ شهرين عندما اتفقنا نحن من نعد أنفسنا جوار علي بطه لزيارته حين سمعنا أن أحد حراس الحدود أطلق على جارنا النار وهو حاليا في الفراش بين الموت والحياة ٠ اتجهنا نساء ورجالا صوب بيت جارنا على شكل قافلة ٠ دخلنا حوشه الواسع فاتجهت النساء إلى حيث جمعهن ، واتجهنا إلى غرفة الرجال التي يستلقي فيها علي بطه في فراشه مستقبلا الناس ٠ بوصولنا إلى باب الغرفة تناهى صوت جارنا الأجش : أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب ٠ طرق أحدنا الباب ودلفنا ، كانت الغرفة تضيق بالجالسين ولما رأوا أعدادنا ، نهض البعض ليفسح لنا مكانا ٠ كل واحد منا راح يمد كفه إلى علي بطه الذي بالكاداستطاع أن يبرك في الفراش ويده اليسرى ملفوفة بشاش على جبصين معلقة برقبته بواسطة محرمة بيضاء قائلا له : حمدا لله على سلامتك ياجار ٠ ومنا من طبع قبلة على وجهه حتى جلسنا جميعا في الغرفة المملوءة بدخان السجائر ٠ أحدنا الذي جلس تحت نافذة صغيرة ، مد يده وفتح شقا منها ٠ رحب بنا بحرارة وشكرنا على زيارته وراح يدفع علبة تبغه المعدنية

الضخمة إلينا ويلحقها بسجائر ملفوفة ، ثم أمر أحد أولاده ليحضر شايا ، فسأله أحدنا : ما الذي حدث ياجار ؟ ٠ أراد أن يعدل بعض الشيء في جلسته وهو يمد قدمه اليمنى ببطء ويقول بأنها تنملت ، وأنه لم يعتد على الاستلقاء في فراش المرض ، فتقدم ابنه الذي أحضر الشاي ووضع مخدة أخرى على المخدتين اللتين تسندان ظهره ٠ عندذاك تناولته نوبة سعال حادة، ولكنه برغم ذلك مد يده إلى كأس الشاي من يد ابنه وأشعل سيجارة جديدة متجاهلا نوبة السعال التي أخذت تخف قليلا مع رشفه للشاي وقال : أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب ، أردت أن أذبح أرنبة فتحايلت على أن أمسك بها ، ولكنها نظرت إلي وكأن صوتها تسرب إلى أذني : علي أنت تقذف الخس لي لا لتطعمني ، بل لتذبحني ياعلي ٠ فجفلت واستعذت بالله من الشيطان الرجيم ٠ قلت لنفسي : ياعلي إنه شيطانها الذي قذف الكلام على مسمعك ، لاتتردد من ذبحها ياعلي ٠ولما رأتني أنظر إليها وأنا ما أزال مصرا على موقفي، استسلمت لإصراري حتى أمسكت بها ، لكن بعد قليل استطاعت أن تفلت من يدي هاربة خارج الحوش فأقسمت ألا أكف عن مطارتها حتى تقع في يدي وأنا أجري خلفها كالمجنون– أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب – رأيتها تتجه قافزة نحو البستان صوب الحدود ، فلحقتها بخطواتي السريعةوهي تتجه إلى السور إلى أن اقتربنا من حرس الحدود الذي أعرفه ويعرفني ، ودوما أقذف له أرغفة من خبز التنورالحار ، ويقذف لي علبة دخان تركية ، وكان يحمل بندقيته على كتفه واقفا على البرج يصوب نظره إلي وأنا أطارد الأرنبة التي وصلت السور ٠ فقلت بأن أرنبتي سوف تستسلم لأنها لن تستطيع تجاوز السور ، ولم تكتمل فرحتي حتى

سمعت صراخا جاء من الحارس أعقبه صوت عيار ناري ، شعرت بأن برقا أصاب يدي اليسرى ، تمددت على الأرض وقد نسيت أمر الأرنبة ٠ بعد قليل نادى الحارس بي ، فأجبته بأنني علي بطه الذي يقذف له أرغفة الخبز ٠ عندذاك قال لي بلغتي أن أرجع من حيث أتيت زحفا على بطني وإلا سوف يطلق علي النار مجددا ٠ زحفت مستديرا نحو الخلف ساحبا معي خيطا من دمي إلى أن وصلت البيوت – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب - فحملني رجال كانوا ينظرون إلي وأعادوني إلى بيتي ٠ تعالى صوت أحدنا : احمد الله ياعلي أنها لم تصب رأسك ٠ قال بحشرجة خرجت من صدره بالكاد : ياليتها أصابتني وأراحتني ٠ ثم سعل قليلا وأردف مستعيدا بعض صوته : اطلاق النار علي في كف ، وخسارتي للأرنبة في كف ٠ هربت مني وتركت حسرة في قلبي ، ولا أظن أن هذه الحسرة ستطلع إلى يوم القيامة ٠ سأقول لكم كيف وقعت هذه الحسرة في قلبي ، منذ السنة الماضية ركبت دراجتي النارية واتجهت إلى البرية لأصطاد الأرانب فكانت هذه أول أرنبة أصادفها ، سبحان الله ما إن وقعت عيناي على هذه الحيوانة الأليفة حتى اشتعلت في نفسي شهوة للحمها ٠ ثم مد يده إلى فمه وهو يخفي بسمة قفزت إليه وأردف : تذكرت وأنا أنظر إليها أم الأولاد عندما ركبنا الطائرة وذهبنا نقضي شهر العسل في العاصمة ، عندها شممت رائحة خبز التنور ونحن نحلق في السماء ، اشتهيت الخبز وقلت لأم الأولاد : يا امرأة الشهوة أكلتني ، لابد أن آكل رغيفا بأي ثمن ٠ قالت : كيف يصلك الرغيف ياعلي ونحن في السماء ؟ ٠ ناديت السائق بأن يهبط قليلا نحو التنور ، فهبط إلى أن صرنا فوق المرأة التي تخبز ، عندذاك مددت يدي من

نافذة الطائرة وصحت بها أن تقذف لي رغيفا ، فرفعت المرأة رغيفا ، التقطته وعادت الطائرة للارتفاع – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب - قلت لنفسي : لن أترك الأرنبة حتى أمسك بها وأجعل أم الأولاد تشويها لي في التنور ٠ لحقتها بدراجتي دون أن أستخدم البندقية حتى لايفسد لحمها ، وآخذها إلى البيت حية،ابتعدتْ عني ووجهت الدراجة إليها ، طارتها نحو ساعتين حتى حاصرتها في حفرة بدولاب دراجتي الأمامي ٠ نزلت من الدراجة و مددت يدي إلى الحفرة ، لكنها عضتني فسحبت يدي وخلعت المحرمة من رأسي ، واستطعت أن أسحبها بواسطة المحرمة ٠ عندها امتلأت نفسي نشوة وأنا أنظر في عينيها المستسلمتين بين يدي ، فقد اشتهيت في حياتي كلها حاجتين وظفرت بهما ٠ فربطتها جيدا ووضعتها في خرج الدراجة حتى لاتهرب وقررت العودة إلى البيت وأنا مسرور كأنني صدت عشرين أرنبا، أخرجت علكة من جيبي وبدأت أمضغها مع تدخين سيجارة بدلا عن الشاي ٠ووجهت الدراجة إلى طريق العودة ، مشيت مسافة بدراجتي وأحسست بأنها تتباطأ في سرعتها ، ففطنت على الفور أن ملاحقتي للأرنبة لمدة ساعتين قد أنفذ البنزين ، وعندذاك توقفت الدراجة وانطفأ محركها ٠ فتحت غطاء / الخزان / وحركته ، كان ناشفا كأنه لم ير البنزين أبدا ٠ فتحت الخرج ونظرت في الأرنبة التي بادلتني نظرة استياء ولا أدري كيف صفعتها على وجهها بظاهر كفي وأنا أوجه لها شتيمة ، ثم أعدت إغلاق الخرج وقد استبد بي شعور بأنني سوف أبات الليلة في البرية وأنا أنظر في لون الغروب ٠ بركت بجانب دراجتي مستسلما لهذا القدر منتظرا الصباح كي أمضي بدراجتي سيرا لعلي أبلغ الطريق العام الذي خمنت بأنه يبعد

مسافة خمسين كيلومترا عني ٠مرت دقائق قليلة – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب – وكأني سمعت هدير طائرة ، رفعت رأسي وبالفعل وقعت عيناي على طائرة تحلق في السماء ٠ قلت : جاءك الفرج ياعلي ٠ وأخرجت بندقيتي بأقصى سرعة ، صوبتها نحو خزان وقود الطائرة وأطلقت طلقة فنزل البنزين كحبل إلى خزان دراجتي حتى امتلأ ، وكي لاينفذ وقود الطائرة – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب – أخرجت علكتي من فمي بأقصى سرعة ، وضعتها في فوهة البندقية وضغطت على الزناد فسدت ثقب الخزان ٠عاد إلي أمل العودة إلى البيت والنوم مع أولادي ، وعندذاك شعرت بأنني ظلمت الأرنبة عندما صفعتها ووجهت لها شتيمة ، فمددت يدي وفتحت الخرج ، داعبت رأسها برفق وأنا أعتذر عن الصفعة والشتيمة ، ثم ملت بفمي لأقبلها من خدها حيث وقعت الصفعة فحركت يديها المربوطتين بحركة خاطفة وخرمشتني من وجهي حتى ركضت وأنا أمسك بوجهي ، وفي أثناء ذلك ارتمت الدراجة على الأرض وانسال بعض البنزين منها وخرجت الأرنبة مربوطة من الخرج ٠ عدت راكضا إلى الدراجة وأعدلتها ، ولكن الدماء التي انسالت من وجهي ولدت في نفسي شعورا بالفزع من الأرنبة ، فأخرجت كيس الخيش من الخرج وأمسكت به الأرنبة المربوطة ، وضعتها في الكيس ، ووضعت الكيس في الخرج ووجهت الدراجة مجددا صوب درب البيت٠ نحو منتصف الليل وصلت بيتي حاملا أرنبتي وكا ن أهل البيت قد ناموا ، أخرجتها من الكيس وتركتها مربوطة في الغرفة التي أنام فيها وأنا أقاوم شهيتي للحمها لأن الوقت متأخر ٠في الصباح أول مافعلته بعد الصلاة هو أن ناديت أم الأولاد وطلبت منها أن

تحضر سكيناحادا وتأتي لتمسك لي برأس الأرنبة لأذبحها ٠فصوبت نظرة إلى الأرنبة وقالت : غبت عن البيت يوما من أجل أرنبة واحدة ، أين كنت ياعلي ٠٠ أرنبة واحدة وتريد أن تذبحها قبل أن تفطر كمن لم يذق طعم اللحم منذ سنتين ٠
قلت : ياامرأة هذه الأرنبة أثارت شهيتي مذ أن وقع نظري عليها ، لوتعلمين بأي حال جلبتها إلى هنا ٠٠ أرنبة ولا كل الأرانب ، لم يسبق لي أن اشتهيت لحم حيوان كشهيتي للحم هذه الحيوانة ٠
فناولتني السكين الحادة ، ومدت يدا إلى رأس الأرنبة والأخرى إلى يديها ، ومن ناحيتي وضعت قدميها تحت قدمي ٠ قلت : باسم الله ٠ ومددت السكين إلى حلقها وفجأة انفجرت أم الأولاد وهي تترك الأرنبة : مهلك ٠٠ مهلك ياعلي لاتذبحها ٠
انتفضت الأرنبة لتهرب فأمسكت بها جيدا وأنا أوجه بصاقا لأم الأولاد : ابنة الكلب ، كادت الأرنبة تفلت مني ٠ فقالت : ياعلي الأرنبة حامل وبعد أيام سوف تضع سبعة أرانب ٠ رميت السكين جانبا وأنا ألمس بطنها : سبعة أرانب ، مادام الأمر فيه سبعة أرانب أجّل شهيتك ياعلي وستظفر بطعام سبعة أرانب ، لابد أن لحم أرانبها سيكون بلذة لحمها الذي صار حسرة في نفسك ياعلي ٠
عندذاك قمت بحفر حفرة في الحوش وتركتها تكمل الحفر ، وصرت ألملم لها الأوراق الخضراء والحشيش وأحيانا أنزل سوق الهال أشتري بقايا الجزر والخس لها حتى مضى شهر ورأيناها تخرج فتبحث عن الصوف والأقمشة المهترئة والخيوط وتمزق الأكياس لتأخذ إلى الحفرة ٠ بعد ذلك اختفت أرنبتنا أياما قليلة لنتفاجأ بصغاراها تخرج للحظات وتعود ٠ فقالت أم الأولاد : هاقد عوضك الله على صبرك خيرا وبركة ياعلي ٠ قلت : ألم يحن

الوقت ، شهوتي صارت تأكلني يا أم الأولاد ، أشعر بأن صبري نفذ ٠٠ أحضري السكين ، يكفي كل هذا الصبر ٠
فقالت أم الأولاد : الصبر جميل ياعلي ، لقد منّ الله علينا برزق وأنت تريد أن تقطعه ، هذه الأرنبة لو ذبحتها الآن ، سوف تقطع علينا نهرا من الرزق ، أما إذا جلبت لها ذكرا فسوف تلد سبعة أرانب أخرى ويصبح لدينا أربعة عشر أرنبا ، وعندذاك ستكون أرانبنا السبعة هذه على وشك الولادة ، فتنزل كل أسبوع إلى السوق وتبيع جوزا من الأرانب ، ياعلي يمكن أن نجمع رأسمالا من هذه الأرانب ، تخيل ياعلي بعد سنة كم من الأرانب سنبيع ونأكل ونذبح لضيوفنا ٠ اجلب لها ذكرا من سوق الأرانب وأعدك أنها عندما تضع سوف أذبحها لك وسوف أذبح واحدة لنا حتى لايشاركك أحد بلحم أرنبتك ، سوف أشويها لك في التنور ٠٠ وفجأة تناولته نوبة سعاله الحادة حتى ظننا بأنه سوف يذهب معها ، لكنه واصل الحديث وهو يتجاهل النوبة الحادة التي أدمعت عينيه وقال : وإذا بقي منها شيء سأخفيه لك لليوم التالي ، سوف يكون لحمها كله لك ، تمهل يارجل ولا تقطع علينا رزقا أرسله الله لنا من أجل شهوة عابرة ٠

استطاعت مرة أخرى أن تقنعني ، فنزلت يوم الجمعة إلى سوق الأرانب واشتريت لها ذكرا ٠ ثم وجه كلامه إلى ابنه بشيء من التوبيخ : قم ياولد اجلب للضيوف قهوة ، كم مرة صرت تسمع هذه القصة اليوم ٠ فنهض الابن إلى الباب ووجه صوته إلى غرفة النساء : قهوة ٠٠ قهوة ٠٠ وخرج ليعود بها بعد قليل ٠ قذف جارنا علبة تبغه الضخمة إلينا وأعاد قذف سجائر ملفوفة إلى كل واحد مكملا حديثه : ٠٠ لن أطيل عليكم ياجماعة ٠٠ صبرنا حتى

ولدت الأرنبة مرة ثانية فانتظرنا خروجها ليكون الخروج الأخير ٠ فذهبت ساعة العصر إلى العشب الأخضر ، تمددت عليه تحت أشعة شمس العصر وبقدرة قادر أخذتني غفوة رأيتني معها أستيقظ في فسحة خضراء يمر بجانبي نهر رقراق أمام قصر ضخم كأنه صنع بكامله من الذهب الصافي ، ورأيت أناسا لايشبهون ناسنا ، أمسك بي اثنان منهم وقاداني إلى باب القصر – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب – اتجها بي إلى باب كبير مفتوح ،بعد قليل انفتح الباب وانحنى لي رجال على رؤوسهم ريش طاووس ، أوصلوني إلى رجل ممدد في فراش من ريش النعام ،حوله صبايا جميلات فتيات إلى جانب أشخاص ينتظرون منه أي اشارة لينفذوها ، و رأيت آثار النعمة في وجهه رغم مرضه الشديد البادي عليه ٠ قال لي الرجل : أنت الآن ياعلي في مملكة لم يدخلها أحد من الإنس قبلك ، وأنا ياعلي ملك هذه المملكة ، اجتاحني مرض فقال لي الأطباء أن دوائي الوحيد هو عند إنسان يدعى علي ٠ فأمرت باحضارك إلى مملكتي ، إن أعطيتني هذا الدواء فسوف أشفى وأعطيك ما تشاء من الذهب والجواهر ، نحن ليست لدينا صلاحيات ولا امكانيات لنسلب الإنسان ممتلكا ته ، فأنت يا علي حر في أن تعطي أو تمتنع ٠

قلت متعجبا : دواؤك عندي ٠٠ أي دواء هذا ؟

قال الملك : الدواء هو لحم الأرنبة التي اصطدتها من البرية ياعلي ٠ فشرحت له شهيتي للحم هذه الأرنبة وأنني إن لم أنل هذه الشهوة قد يصيبني مرض أخطر من مرضه ، لأن الحسرة سوف تبقى تأكل قلبي حتى أموت ٠ فقال : لابأس ياعلي ، لن أترك الحسرة في قلبك ، اذبحها ياعلي ، ونتقاسمها ، دع نصفها لك واجلب لي

نصفها مشويا ، وعندما أتناوله سوف أشفى فأعطيك ما تشاء مما وعدتك به ، ووعد الملوك دين في رقابهم ٠ قلت له بأنني موافق – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب - وطلبت أن يرشدني إلى طريق الذهاب وجلب الأرنبة ٠ فأشار إلى رجل ممن حوله ، وعلى الفور أحنى الرجل رأسه لي ودعاني للذهاب معه ، فاتجه بي نحوالفسحةالخضراء التي رأيتني فيها أول مرة ٠ وقفنا في المكان وقال : تمدد ياعلي واغمض عينيك ، سوف تكون ممددا في المكان الذي أتيت منه ، اجلب نصف الأرنبة مشويا وعد إلى مكانك ، تمدد هناك واغمض عينيك وسوف تكون هنا ، سنأخذك إلى ملكنا لتطعمه اللحم الدواء بيدك ، وسوف تكون ضيفنا ، لن تخرج قبل أن نكرمك ويفي ملكنا بوعده لك ٠ تمددت على الفسحة الخضراء وأغمضت عيني فرأيتني مرة أخرى في مكاني الأول الذي غفوت فيه ، نهضت غير مصدق إلى البيت وأنا أرسم أحلاما وآمالا كبيرة سوف تحققها لي هذه الأرنبة ، لدى وصولي إلى البيت ، ذهبت إلى أم الأولاد وشكرتها على حكمتها بتأجيل ذبح الأرنبة وشرحت لها ما وقع معي وأنني سوف أعود ومعي ما أريد من الذهب والجواهر ، وطلبت منها أن تتكتم على الأمر حتى لايطمع بنا الطامعون ٠ ثم اتجهنا إلى الأرنبة التي كانت في حفرتها ، تحايلت عليها مرارا وتكرارا وبليونة محببة حتى خرجت وأمسكت بها ٠ داعبت رأسها بلطف وطلبت من أم الأولاد أن تحضر موسا حادا وتجهز اشعال التنور لأن ملَكي المريض بانتظارعودتي في أقصى سرعة ، فهرولت أم الأولاد إلى المطبخ وفي أثناء ذلك لاأدري كيف تملصت الأرنبة من بين يدي وأخذت تجري إلى الخارج ٠٠ طار عقلي وأنا أطارد ها وأقذف عليها

الحجارة وهي تتجه صوب الحدود، خاطرت بنفسي حتى آخر خطوة ، لكن الحارس الملعون قال بأنني لو خطوت خطوة أخرى سيجعل جسدي غربالا ، فبقيتْ الأرنبة أمام عيني ملتصقة بالسور وأنا أنظر إليها وأعود زاحفا أتجرع مرارة خيبتي ،أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب٠

انفرج شق الباب ودخل أناس غيرنا من الجوار ، فنهضنا لنفسح لهم مكانا ، تقدمنا إلى غرفة النساء ننادي نساءنا ، عندها تناهى إلينا صوت زوجة علي بطه وهي تقول للنساء : أعوذ بالله من المرأة التي تكذب ٠

بعد منتصـــف الليـل

تناهى نداء واثق إلى مسمعه يسبق جسداً يهبط الدرج نحو باب القبو، امتدت يده تطفئ موسيقى أوشك أن يغفو على لحنها الهادئ، ثم تحرك بتكاسل فتلاحق النداء الواثق متداخلاً هذه المرة بطرقات على باب غرفته المغلق: أستاذ زياد.. هل أنت نائم؟

لا يدري كيف خرجت منه حروف متلعثمة رد بها بسخرية على السؤال الساذج: نائم.

عاد الصوت يهتف: افتح الباب رجاءً

للتو علم بأنه صوت الأستاذ عثمان الذي تخرج هذه السنة ويعمل بصفة محامي متمرن في مكتب أحد المحامين القدامى. شخص بسيط إلى درجة السذاجة، من المريب حصوله على إجازة الحقوق، أم أن في الأمر سراً. هذه الكلمات دوماً يرددها بينه وبين نفسه كلما زاره عثمان في البيت، وهذا يحدث مرتين في الأسبوع بشكل متفرق، أحياناً يأتي وقت الغذاء، وأحياناً أول المساء،ويمكن له أن يهبط في التاسعة صباحاً من يوم العطلة.

وهو من نوع الضيوف الذين لا يطيلون كثيراً في الجلوس إلا إذا كانت هناك مناسبة أو حديث أثير في الأخلاق، ورغم مظاهر السذاجة على شكله وطريقته في تناول المواضع فهو يفاجئ سامعه بمعلومات هامة يبدو بأنه الوحيد الذي يلم بها.
نجح الأستاذ زياد في ترك فرشته ومد كفاً يفتح الباب لهذا الزائر الذي أصر على إزعاجه في وقت بدا له أكثر هدوءاً في هذه الأيام المتوترة التي يعيشها منذ أسبوعين. دخل عثمان على عجل وهو يرتجف من برد كانون الثاني القارس والكلمات ترتجف بين شفتيه: مساء الخير.. مررت في الشارع مصادفة، فقلت لا بد أن أزورك رغم أنني وجدت الضوء مطفأ.
ولما رأى زياد ضيفه ما زال واقفاً يرتجف من برد منتصف الليل، أشعل المدفأة الكهربائية والكلمات تخرج كأنها نائمة من فيه: تفضل.. سنجلس بعض الوقت، وإذا غالبني النعاس سأنام ونحن نتحدث، لا توجد مشكلة كبيرة.
بعد دقائق معدودة نهض عثمان وراح يملأ إبريق الشاي ماءً ويضعه على المدفأة: لن أزعجك برغبتي الشديدة في تناول كأس من الشاي، دعني أفعل كل شيء بنفسي. ثم ما لبث أن أحضر كأسين صغيرين وعاد يبرك في موضعه قائلاً: منذ مدة وأنا أحاول أن أخفي عنك، لكن ما شاهدته اليوم بات أكبر مما أقدر علي إخفائه، وما دعاني لذلك هو مروري الآن بالقرب من بيتك عسى أن تخفف عني بعض الألم. أجل يا صديقي، أنا أعتبر نفسي مسؤولاً عن كل ما حدث لغازي، كنتُ الشرارة الأولى التي أوقدت النيران وأكلت صديقاً عزيزاً لي. مد كفه إلى الإبريق الذي أخذ البخار يعلو منه وصب كأسين من الشاي

وأردف يقول: منذ سنة لاحظت بأنه يمضي نحو تبذير يمكن أن يؤذيه في وضعه المادي، ينفق ما يقع في يده دون أن يدخر شيئاً لطارئ.. هل نمت، ألا تسمعني، اشرب الشاي قبل أن يبرد.

- لا، لا، أسمعك جيداً، من هو غازي، هل أعرفه؟

- لا أظن، إنه رجل غاية في الجود ٠

مد زياد كفه إلى كأس الشاي الذي تفاجأ به أمامه وبدأ يرتشف ويقاوم حالة النعاس التي بدت مهيمنة عليه، فقال عثمان : مرة بقيت معه في المطعم إلى أن أغلق وصرف عماله فمشينا وهو يقود البسكليت بيديه إلى البيت على الأقدام. قلت له: يا غازي، ألا تفكر بالمستقبل، ما تزال عازباً تحتاج إلى بيت وآثاث وزوجة، بيت أهلك لا يدوم لك، وأختك لن تخدمك إلى الأبد.

قال: يا أستاذ عثمان ، كن على يقين إن لم أصرف ما في الجيب، لن يأتني ما في الغيب، أنت متعلم وفهمان وأنا أمّي لم أدخل مدرسة، لكن هذه هي فلسفتي في الحياة، عدم انتظار كارثة، بل عدم انتظار يوم آخر شيء جميل، هكذا أعيش بدون عقد، وأعيش متحرراً من خوف.

قلت: لكن لن تضمن حلول كارثة، ومجيء يوم جديد،.. هل نمت مرة أخرى، زياد...زياد.. انهض أرجوك، اسمعني، زياد هل تسمعني، افتح عينيك أنا بحاجة لأن تسمعني.

استفاق زياد وتفاجأ بأنه ليس في فرشته، فنظر إلى الأستاذ عثمان، ثم عاد وأغلق عينيه قائلاً: ومن قال بأنني لا أسمعك، أكمل يا صديقي، إنني أسمعك جيداً وأنا مغمض العينين، صدقني فإن كلماتك كلها وصلتني، هل تريد أن أعيدها لك. فقال

الأستاذ عثمان : لا، لا، أنا واثق بأنك تسمعني، أجل، لكنه قال: قلق اللاإ نتظار أهون على المرء من قلق الانتظار.
أقسمت بيني وبين نفسي ألا أتركه حتى أجعله يغير نظرته هذه فذهبت معه إلى البيت، سهرنا حتى طلوع الضوء وأنا لا أكف عن الإصرار إلى أن وجدته يلين بعض الشيء ويتفق معي. لكن بعد شهر من هذا الحديث الطويل رأيته ينقلب على عكس ما كان عليه، فعندما أزوره لا يتحدث إلا عن كيفية جمع المال، ولا يقدم لي حتى كأساً من الشاي، أما الأصدقاء الذين كانوا دائم الحضور في ضيافته،فلم أعد أرى قدم واحد منهم في المطعم، غدت علامات شح لا يطاق تظهر في سلوكه. مرة صادفته في باص النقل الداخلي ورغم أنه كان يجلس في مقعد أمام مقعدي، انتظر إلى أن مددت يدي ودفعت الأجرة، عندما نزلنا فوجئت به يدخن من علبة سجائر رديئة، وكان في السابق يدخن أغلى دخان موجود في البلد فلم أتملك نفسي وقلت له: يا غازي هذا الدخان الرديء يسبب لك مرضاً.قال: لا تسأل يا أستاذ، كله يسبب مرضاً ويلحق بعضه ببعض.
وبدأت المشاكل المنزلية تحاصره لأنه يأكل ويعيش في البيت دون أن يقدم شيئاً. مرة أردت أن أنصحه ليعود إلى ما كان عليه من بسط يده كل البسط، فأخرج حزمة نقود من جيبه بيدين راجفتين وصار يقبلها بحرارة ويقول: هذه هي الحياة كلها.
احتقرته في تلك اللحظة وتركته مع حياته.. رغم ذلك لم أستطع التخلص من شعوري بالذنب تجاهه.. أجل أنا الذي دفعته إلى ذلك، كل مرة أتردد إليه في العمل وأحاول إصلاح خطيئتي فأفشل. خسر جميع رفاقه وأهله وأخوته وأقربائه وخسر صحته

ونفسه، أنا المسؤول عن مرضه ويجب أن أشفيه: أرجوك يا غازي: الغني يموت والفقير يموت وأنت ستموت.
- لأمت غنياً أفضل من موتي فقيراً.
- وما الفائدة؟
- الفائدة لا أحد يعرفها بقدري.
- لكنك تنتحر هكذا.. لقد خسرت كل شيء!!
- بل ربحت كل شيء.. غداً سترى ما أفعله..جميعكم ستكونون بحاجتي.
- أنت مجنون.. هل تتصور بأنك ستتحول إلى وحش.

لم يخطر ببالي أنه سيطالبني بمبلغ كان قد دفعه بإلحاح نيابة عني في إحدى المقاهي منذ ثلاث سنوات.. لقد ذكرني به وطالبني وسمعت بأنه فعل ذلك مع الكثير من أقربائه وأصدقائه، لا أحد يستطيع أن يأخذ قرشاً واحداً منه.. يمشي تحت المطر ساعتين كي لا يصعد الباص.. لا يأكل إلا مرة واحدة في اليوم.. تصور ينام جائعاً. لم يسبق لي أن بكيت، ولكن اليوم فقط بكيت عندما رأيته...

أجل اليوم غلبتني الدموع وأنا أرى غازي في قلب المدينة، كان قد أعطى كل أمواله إلى رجل لقاء فائدة شهرية، ومنذ أيام سمع بأن هذا الرجل احتال عليه وهاجر إلى الخارج. لم يكن بوسعه أن يتقبل الأمر وينسجم معه ويفوض أمره لله. كان يهرول وسط المدينة بثياب ممزقة يحمل بيديه خرقة بالية أشعل فيها ناراً وينادي: نقود.. نقود. وقد تجمع إليه سوقيون ويلاحقه صبيان بالحصى.

نحل وذباب

في الصباح الباكر جفل السيد/ حرارة / من نومه على أصوات غريبة داهمته في فراشه، وعندما نط إلى الباب رأى فوجاً هائلاً من الذباب يملأ الحوش وفي أثناء فتحه الباب امتلأت الغرفة بهذه الكائنات التي أخذت تطير في أجواء الغرفة وتحط على الجدران وما تحويه من الغرفة. وقبل أن يصيح جاء صوت زوجته المذعور: حرارة.. قم يا حرارة الدبان أكلنا كأنه نزل من السما على بيتنا.
كان الصوت قادماً من غرفة نوم الأولاد، فاتجه يطرق الباب ليرى الأولاد وأمهم في حالة ذعر من هذا الغزو الغريب وعلى الفور أمر زوجته بالخروج والذهاب إلى بيوت الجيران لترى إن كانت هذه الظاهرة عامة أم اقتصرت على بيتهم.

في هذا الوقت الباكر تقلب السيد/زهر الحياة/ في فراشه واستيقظ هو الآخر على أصوات غريبة في بيته المجاور لبيت السيد/حرارة/، فتح الباب ورأى فوجاً هائلاً من النحل يملأ الحوش عندها قالت زوجته: النحل هجم على بيتنا دفعة واحدة.. يا رب سترك.. اجعله نحل خير.. كأنه نزل من السما على بيتنا.

اندهش/زهر الحياة/ لهذه الظاهرة الغريبة التي يراها لأول مرة في حياته، فطنين النحل يصم الأسماع، ووجوده بهذا الشكل يشل الحركة في البيت، لكنه قال مطمئناً أولاده وزوجته: يكون نحل ضايع حط في بيتنا ليرتاح ويرجع يطير.

وبعث زوجته لترى إن كان النحل قد حط في بيوت الجيران أيضاً. التقت الزوجتان في الشارع فقالت زوجة/حرارة/ لجارتها: الدبان أكلنا.. من شوي هجم على بيتنا والعجيب ما في دبانة واحدة عند الجيران.. سألت كل البيوت، وأنا بطريقي حتى أدق بابكم لأسأل إن كان هجم عليكم دبان مثلنا. عضت زوجة/زهر الحياة/ شفتها قائلة : يعني دبان.. دبان..؟!. أجابت زوجة/حرارة/ وهي تبحلق في عضتها لشفتها: إي والله.. دبان..دبان!

قالت: تعالي شوفي اللي حط في بيتنا.

فرأت زوجة/حرارة/ فوج النحل الهائل في بيت جارتها، وهرولت مسرعة قائلة لزوجها: عند الجيران ما في ولا دبانة واحدة.. بس العجيب بيت جارنا/زهر الحياة/ مليان نحل.. حط من شوي.. وقت ما حط عندنا الدبان.

لدى سماع هذا الكلام نفر/حرارة/ وقال بغيظ: يعني هو أحسن مني حتى يجيه نحل وأنا يجيني دبان.
بعد قليل خرج الجاران إلى أعمالهما وكالعادة التقيا في الشارع، تقدم/زهر الحياة/ يسلم على جاره ويتحدث معه عن هذا الذي حل عليهما، لكن/حرارة/ ولأول مرة أدار ظهره ولم يجب على سلام جاره فاحمرت وجنتا/زهر الحياة/ واعتراه خجل كبير مما بدر من جاره وهو يمضى إلى عمله محاولاً تناسي ذلك.
مضت أيام ولم يهجر النحل بيت/زهر الحياة/ فاستعان بأحد المربين من ذوي الخبرة وخصص ركناً من بيته للنحل، وأخبره المربي بأن الخير حل عليه وأن العسل سيحسن من وضعه المالي لأن النحل يدر على صاحبه ذهباً ٠
من جانبه استطاع/حرارة/ أن يقابل رئيس البلدية ويقنعه بتشكيل لجنة مهمتها القضاء على الذباب في بيته بعد أن حمل مسؤولية انتشار الذباب للبلدية وقال بأنها لم تقم بواجبها في بخ المبيدات مما جعل الذباب يغزو بيته.
حضر رئيس البلدية بنفسه مع لجنة كشف خاصة على البيت، رأى بعينه فوج الذباب الهائل الذي يحط في البيت دون غيره من البيوت، فأمر بإحضار صهريج على الفور لرش البيت بالمبيدات والسموم القاتلة للحشرات. ولكن هذه الظاهرة ازدادت غرابة عندما بدأ الذباب وكأنه يسبح وينتعش بين الدخان الكثيف الذي يشبه الغيوم، وبعد انتهاء هذا الدخان دب نشاط عجيب في الذباب وبدأ يطن بصوت أعلى. أمام هذا الواقع اقترح رئيس البلدية على مداومة البخ لمدة ثلاثة أيام متلاحقة، وعندها لن يصمد الذباب أمام هذه السموم المتواصلة. وأمر اللجنة أن

تواظب على هذه المهمة بشكل يومي، في اليوم ثلاث مرات: صباحاً.. ظهراً.. مساءً.
بدأت هذه اللجنة في تنفيذ أمر رئيس البلدية فتملأ بيت السيد/حرارة/ بالدخان القاتل للذباب لمدة ساعتين كل مرة. تحول الحي كله إلى روائح غازات كريهة حتى تشربت الجدران والآثاث والأبواب والنوافذ، وفي صبيحة اليوم الثالث اضطرت اللجنة إلى التوقف عن مهمتها عندما تعالت أصوات سيارات الإسعاف في الحي وعرفت هذه اللجنة أن الدخان المتواصل تسبب في حالات تسمم لبعض السكان، فقد أُجهضت امرأة حامل كانت في شهرها الرابع، وتسمم طفلان صغيران بسبب عدم احتمال الروائح المتواصلة، وتوفي عجوز كان في الثمانين من عمره، بالإضافة إلى حالات إغماء لآخرين. وما أذهل الجميع أن ذبابة واحدة لم تصب بأذى. لم يسكت الأهالي عن تصرف رئيس البلدية الذي ألحق بهم كل هذا الضرر فتقدموا بشكواهم إلى وزير الداخلية يحمّلون رئيس بلديتهم مسؤولية موت عجوز وإجهاض امرأة وتسمم طفلين نتيجة قرار طائش لم يفد بشيء. وبالفعل صدر قرار بفصل رئيس البلدية من منصبه وذلك لتهدئة السكان، وتم تعويض المتضررين بمبالغ مالية أتت إليهم من وزارة الداخلية. أمام هذه الأحداث لزم/حرارة/ الصمت ورضي بالأمر الواقع بالعيش مع الذباب، وبين يوم وآخر يتواجد في مكاتب بيع وتأجير البيوت عارضاً بيته للبيع أو الإيجار، لكن كل هذه المحاولات تبوء بالفشل عند مشاهدة الشاري أو المستأجر لهذا الفوج الهائل من الذباب الذي يصم الأسماع بطنينه حتى ذاع صيت هذا البيت في المدينة كلها

وتسرب الخبر إلى بقية المحافظات عندما نشرت صحيفة محلية تحقيقاً موسعاً على حلقتين كتبه مراسلها في هذه المدينة تحت عنوان رئيسي مثير:
"قصة الذباب الذي تسبب في فصل رئيس البلدية"
وعنوان فرعي:"هذا كل شيء عن الذباب الذي يغزو بيوت أحد المواطنين ويقاوم كل أنواع المبيدات".
أمام هذا بدا النعيم يحل على جاره المجاور/زهر الحياة/ الذي بدأ في بيع العسل، وذاع صيته بشكل عجيب في المدينة خاصة عندما زاره أحد الفقهاء وأهداه/زهر الحياة/ علبة من العسل، فقال هذا الفقيه في إحدى المجالس الكبرى بأن الله أرسل نحلاً من الجنة إلى/زهر الحياة/ وتفوح رائحة عسل الجنة من عسله.
هذا الإعلان الذي صدر ربما بشكل عفوي من الفقيه أقام المدينة ولم يقعدها على بيت زهر الحياة، وبدأت أفواج هائلة من الناس تدخل الحي وتقدم القرابين والهدايا حتى للجوار. فمنهم من يذبح هذه القرابين أمام باب/زهر الحياة/ المغلق ويوزع لحمها على الجوار و/زهر الحياة/ لم يعد قادراً عل استقبال كل هؤلاء فيكتفي بإغلاق بابه وقد وضع لافتة صغيرة على الباب كتب عليها:"اعذروني أنا غير قادر على استقبالكم..رجاء عدم المؤاخذة".
هذا الإعلان لم يخفف من الازدحام في الحي فالناس يأتون ويقولون بأنهم يشتمون رائحة الجنة الطيبة من هذا البيت المبارك، ويأتون بالمرضى والمعتوهين والمشلولين والرجال والنساء العواقر ليشتمّوا طيب ريح الجنة ويتبركوا بلمس جدار بيت نحل الجنة، وهذا أدى إلى انتعاش اقتصادي لسكان الحي

الـذين بـدأوا فـي بيـع المسـابيح، وصـور البيـت، والعطـور، والكاسات، والصحون، والقبعات البيضاء، ومناظر تحتوي على صـور لـ/زهر الحيـاة/ وأولاده، وأركـان بيتـه، وخليـة النحـل، ونحل يطير، ونحل يتشمس، وعسل، وأبواب البيت، ونوافذه، وآثاثه.

وهذه المناظر على شكل كاميرات صغيرة تتقلب الصور منها أمام عينـي النـاظر بالضـغط علـى زر صـغير. أمّا مـن لا يملـك قيمة شراء منظار فيمكنه النظر بقليل من المال. وبدأ وجهاء المدينــة وكبـار الأثريـاء فيهـا يتـوددون ويتـرددون علـى/زهـر الحيـاة/ للحصـول علـى العسـل الطـازج الـذي أصـبح الوجهـاء الأثريـاء يتبـارون للحصـول عليـه.. إلـى جانـب ذلـك تبـرع أحـد الأطبـاء بقـول أن هـذا العسـل يحتـوي علـى موادغذائيـة غيـر متوفرة في العسل الشائع وأيد هذا الكلام بعض أصحاب الخبرة والاختصاص في شؤون النحل والعسل، حتـى أن أحد الأثريـاء الكبـار عـرض مبلغـاً خياليـاً لشـراء البيـت و إيجـاره، لكن/زهـر الحيـاة/ رفـض عرضـه وشـكر بادرتـه وكـرد علـى ذلـك وعـده بالعسل وقتما يشاء.

فـي ليلـة ممطـرة مـن ليـالي الشـتاء قفز/حـرارة/ علـى حـائط جـاره/زهر الحيـاة/ ومعـه علبـة مـن المبيـدات.. تقـدم مـن خليـة النحل وبخ ما في العلبة من سموم على النحل، عند ذاك تسربت رائحة السموم إلى/زهر الحياة/ وأيقظته من نومـه، فهرع ينظـر فـي الحـوش بعـد أن أشـعل الأضـواء واسـتطاع أن يـرى قامـة جاره/حرارة/ تنقلب إلى الجهة الأخرى. هرع إلـى خليـة النحل، داهمتـه رائحـة السـموم.. عـاد إلـى الـداخل والقلـق يسـيطر عليـه

خوفاً من موت النحل بعد تأكده بأن/حرارة/ قد أفرغ السموم في الخلية. هذا القلق لازمه أسبوعاً كاملاً حتى اطمئن بأن النحل لم يصب بأذى. عندها أعلم زوجته وأولاده بالحادث وطلب إليهم أن يأخذوا الحيطة والحذر من جارهم الذي يريد القضاء على هذا النحل الذي نجا من السم بأعجوبة. وهذا أدى إلى أن يتناوب الأولاد في حراسة البيت ليلاً ففي كل ليلة يتولى أحدهم هذه المهمة. لدى معرفة/حرارة/ بأمر الحراسة أرسل تهديداً إلى جاره/زهر الحياة/ عن طريق أحد الجوار يتهمه فيه بالتسبب في حل كارثة الذباب عليه، لأن وجود الذباب يقترن بوجود النحل.. والذباب يحل حيثما حل النحل، والدليل أنهما حضرا وقت واحد وساعة واحدة: حط النحل في بيت زهر من هون، وحط الدبان في بيتي من هون.. الدبان كان يلاحق النحل..يعني هو دبان نحل.. مدمن على ريحة النحل.. يكون مكان ما يكون النحل ومن ريحة عسل النحل يعيش، أنا خرب بيتي وهو عمر بيته.. وفوق هذا ، الفقيه يقول بأنه نحل الجنة ودباني دبان النار، ويقول للناس: النحل يحط على الورد والدبان يحط عالـ... يعني فوق ما أنا ساكت على مصيبتي يشهرون فيني، الدبان أكلني وأكل أولادي.. حرمنا من النوم، هذا بيتنا الوحيد وين بدنا نتشرد..سنة ونحنا نتحمل.. بس ما عاد فينا نتحمل بدنا ننفجر، وزهر أفندي اللي هو سبب مصيبتنا مبسوط على هالحال.

وقال/زهر الحياة/ لهذا الجار الوسيط طالباً منه أن ينقل هذا الكلام لجاره/حرارة/: يا أخي مثلما الدبان عصى في بيته، عصى النحل في بيتي.. أنا ما كان عندي علم لا بالدبان ولا بالنحل، يعني أنا لو بعت البيت يبقى النحل فيه حتى لو سكنه

غيري، الحل مو عندي أبداً.. القصة أكبر من قدرتي، أنا ماني عدوه مثلما يتوهم.. أنا جاره وأنا ساكت على طنين دبانه لأني أقرب بيت له.. هذا عدا إنه يسبني ويسمعني صوته. من كم يوم هجم على بيتي بالليل ورش السموم على النحل وما اشتكيت عليه قدّرت ظروفه.. نحن نتقي شره وأولادي يسهرون الليل يحرسون النحل من شره، يريد أن أحرق بيتي حتى يطفش النحل ويلحق الدبان.. يعني هذا كلام واحد يريد الخير وهو يريدني أنام مع أولادي في الشارع ويقطع رزقي من بيع العسل حتى يرتاح، طيب يوجه هذا الكلام لنفسه ويحرق بيته حتى يطفش الدبان وأنا موافق يطفش النحل، أنا ما أمنعه يتصرف في بيته.

عندما نقل هذا الجار الوسيط الكلام على لسان/زهر الحياة/ للسيد/حرارة/ قال: الدبان هو اللي يلحق النحل، وين ما يحط النحل يبقى الدبان يحوم حواليه، هدم بيتي ما يفيد بشي.. الحل أن يهدم زهر بيته، أو يشعل فيه النار حتى يهرب النحل ويلحقه الدبان.

وقال بأنه إن لم يحرق بيته فسيكون عدواً له وعندها لن يدع أي فرصة لقتله وهو خيار وحيد بين طرد النحل أو الموت.

وأمام هذا الواقع اضطر السيد/زهر الحياة/ إلى تقديم ادعاء شخصي على جاره يتهمه فيه التهديد بالقتل، فزاد هذا الادعاء من حدة/حرارة/ واعتبره عدواناً جديداً عليه من قبل جاره/زهر الحياة/.

وأمام إصراره على التهديد تم توقيفه من قبل النيابة لمدة ثلاثة شهور. بعدها سحب تهديده وقال بأنه كان في حالة غضب وقد

عاد إلى رشده الآن. بالمقابل حضر السيد/زهر الحياة/ ولدى سماع هذا الاعتذار تنازل هو الآخر عن ادعائه الشخصي وتصالحا أمام النيابة وخرجا معاً. عرض عليه / زهر الحياة / عزيمة على الغداء بمناسبة الصلح،وقال بأنه سيعطيه علبة عسل بشكل شهري مجاناً ، لكن/ حرارة / ضحك وقال بأنه تحايل على القضاء بهذا الصلح ليتم إخلاء سبيله ويتمكن من تنفيذ تهديده، ومن ثم يعود إلى السجن منتصراً، لأن السجن بالنسبة له أفضل من بيت الذباب ذاك.

وقال/زهر الحياة/ بأن الموت أفضل له من التخلي عن النحل وانه سيزيد الرعاية والحرص.

قال/ حرارة /: بس بدي أقضي عليك قبل ما يقضي علي القهر ولما أتخلص منك أمضي أحسن سنوات عمري في السجن.

قال/ زهر الحياة / بإصرار: بدي أرعى النحل حتى آخر لحظة من عمري وإذا عملتها بي.. أولادي يرعون نحلي يعني يبقى النحل يتنفس في بيتي.

خيوط الدخـــا ن

بغتة أحس السيد / ميم / بصعوبة تنفس ، ولما فتح عينيه وسط ظلام دامس أدرك بأن صعوبة التنفس ذاتها هي التي أيقظته من نومه ، ولايدري لماذا باغته شعور ظلامي بأنه في قبر ٠ نظر إلى النواصة ، رآها مطفئة وهذا ما عزز الشعور بالموت لديه ، ومن ناحية أخرى فعندما صوب عينيه إلى أسفل الباب المحكم عله يرى نورا ، أحس بخيط من الدخان يتسرب من الأسفل إلى المكان المظلم الذي يحتوي جسده الذي بات يرتعش تحت لحاف غدا عليه بثقل جبل ٠ تمتم السيد / ميم / بكلمات وكأنها الأخيرة التي يتمتمها لنفسه : هاهو الدخان الأسود يزحف إليك ، يتحلق كحبل مشنقة حول رقبتك وأنت لاتستطيع فكاكا منه ، تعجز من إبداء أي حركة في مواجهته ٠ أمام هذا التوبيخ الداخلي الذي وجهته نفسه إليه أراد أن يبدي حركة ولو صغيرة علها تشجعه للنهوض والتقدم نحو الباب لفتحه ، بيد أنه فشل في أي محاولة للتحرك فعادت نفسه تخاطبه بذات النبرة : إنك ميت ٠٠ فقط الميت هو الذي لايقدر على حمل جسده ٠٠ هاهو الذي ظللت طوال عمرك تتهرب منه يقتحمك ويحيلك إلى كائن عديم

الحراك ، وبعد قليل يحيل جسدك إلى جثة متفسخة وكأنك لم تكن ، كأنك لم تعش ٠ كم من الأصدقاء لديك ، كم من الشوارع التي تمضي فيها ، كم من الطقوس اليومية التي تقوم بها ، سيغدو كل ذلك إلى صورة من الماضي الذي لايعود ، لقد فقدت كل شيء ، فقدت حياتك كلها ٠ لم تكن تصدق أن الموت حقيقة يواجهها الإنسان ، لم يكن أي موت بوسعه أن يقنعك بموت الإنسان موتا كليا واختفاءه من الحياة الحافلة التي يعيشها ٠ إنهم يذهبون إلى أماكن أخرى يعيشون الحياة بكل دفقاتها ، هذه الحياة التي لا تنطفئ في الإنسان أينما حل ٠

اكتظت الحجرة بالدخان ورأى في لحظات أن الاختفاء الحقيقي هو جموده في الفراش مستسلما للدخان وبالكاد خرجت من فيه عبارة متلعثمة : / لكنني لست ميتا / ٠ عندما تناهى إليه صوته وأحس بأن الصوت اخترق الظلام والدخان معا تأكد بأنه ليس ميتا ، فأطلق قهقهات مجلجلة لامتناهية أحس على إثرها بقوة هائلة تجتاحه ، نهض من الفراش يواجه الدخان والظلام ومد يده إلى زر الضوء فامتلأت الغرفة نورا ، رأى الظلام والدخان يتعانقان ويخرجان بجبن من تحت الباب ٠ واصل قهقهاته المجلجلة التي ملأت نفسه بنشوة الحياة من جديد ، ثم ارتدى ثياب الخروج وفتح الباب ، رأى الجيران يتحلقون حول بابه يحدجونه بنظرات غريبة ، أدرك للتو بأن قهقهاته المجلجلة تلك هي التي أخرجتهم من بيوتهم ، ألقى نظرة سريعة إلى ساعته رآها تشير إلى الواحدة ليلا ، في تلك اللحظات أحس برغبة جامحة في أن يمضي في الطرقات تحت قناديل الليل ، أقفل

الباب خلفه ومضى يهبط الدرج غير آبه بالنظرات التي تركها خلفه .